ترجمات

أوفاتيم

رواية

مثلاً أخى

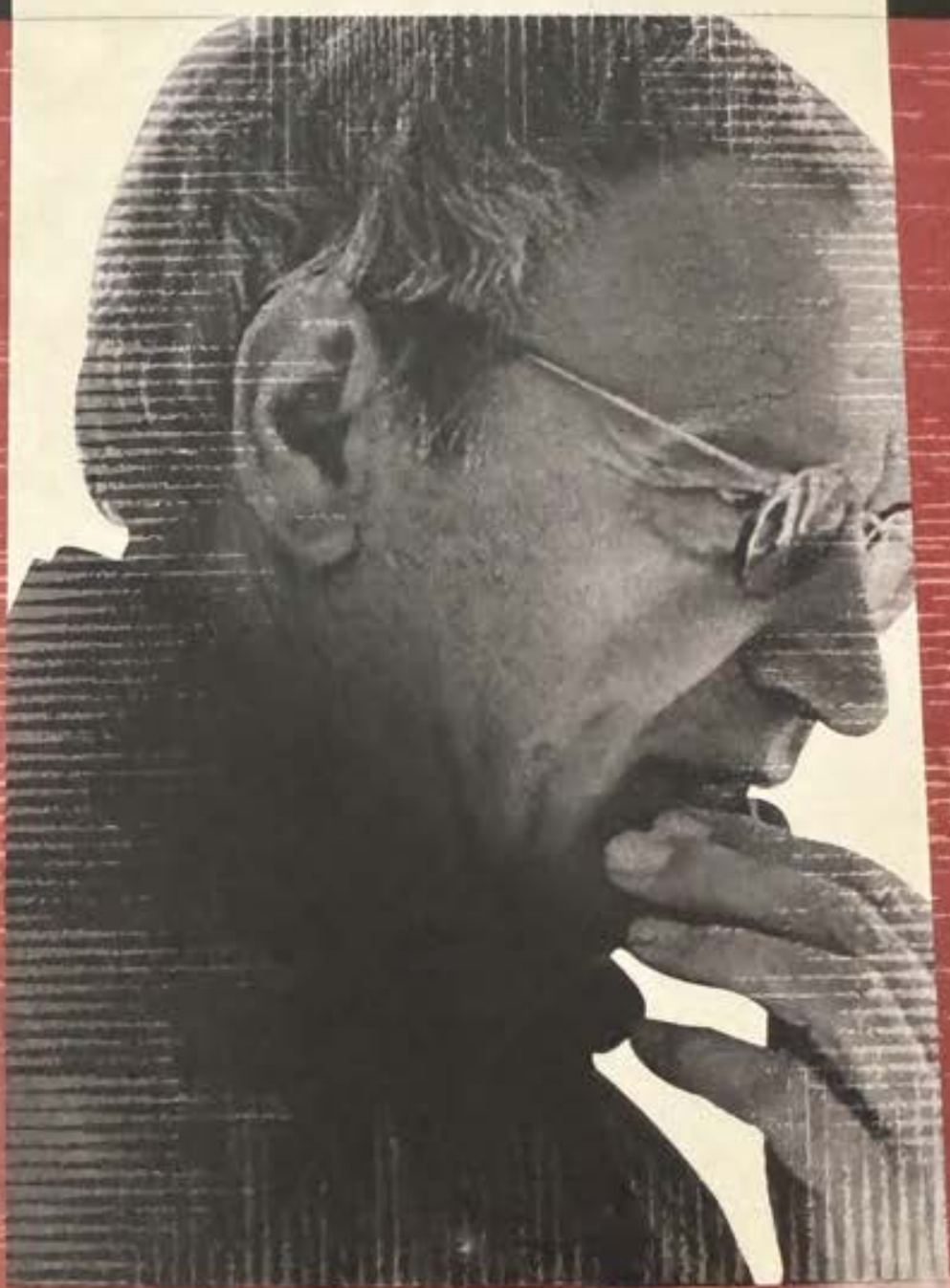

ترجمة: د. هبة شريف

ميريت

مثلاً أخي
رواية
أوفا تيم
ترجمة: د. هبة شريف
الطبعة الأولى ٢٠٠٥ .
(c) دار ميريت
٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.com
merit56@hotmail.com

الغلاف :

المدير العام : محمد هاشم

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:-

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع مشروع ليتركس الألماني
www.litrix.de

هذه ترجمة لرواية Am Beispiel meines Bruders للكاتب الألماني أوفا تيم Uwe Timim الصادرة عن:

Kiebenheuer & Witsch, Verlag Koln-2003

يتسم هذا العصر الذى نعيش فيه بأنه يشهد انتهاء الحكايات الكبرى، أو الميتا حكاية، وانهيار الأيديولوجيات والتفسير الحتمى الجاهز لحركة التاريخ.

فمع انهيار سور برلين فى عام ١٩٨٩ تأكد انتهاء الأيديولوجيات الكبرى، كما انقضى قبل ذلك أيضاً أى أمل فى التغيير واليوتوبيا بعد فشل الثورة الطلابية الغربية فى السبعينيات.

وأوفا تيم، الكاتب الألمانى المعاصر، أحد الذين شهدوا انهيار الحكايات الكبرى وفشل اليوتوبيا والرغبة فى التغيير وهو مثله مثل الكثير من الألمان مهموم بقضية التاريخ النازى لألمانيا، يحذر من تكراره لأنه يرى أن النازية نظام يمكن أن يتكرر إذا ما تكررت العوامل التى أدت إلى ظهوره.

والنص المترجم سيرة ذاتية للكاتب فى مرحلة معينة فى حياته، فأوفا تيم عاصر ألمانيا النازية عندما كان طفلاً، كما أن له أخاً مات فى الحرب العالمية الثانية بعد أن تطوع فى القوات النازية بمحض إرداته، وهكذا قرر الكاتب أن يكتب عن تلك الفترة فى حياته وحياة أخيه بهدف أن يفهم ويدرك ما الذى يجعل شاباً فى ريعان شبابه يتطوع بكامل إرادته فى القوات النازية ليغزو بلاداً ويقتل أبرياء ثم يصاب هو نفسه بعاهة شديدة ويموت بعدها

بفترة قصيرة، ما الذى جعل هذا الصبى يفعل هذا، وما الذى يجعل أبويه يباركان خطاه؟

يرى أوفا تيم أن المسئول الأول عن خضوع الشعب الألمانى إلى النظام النازى وخنوعه هو نسق القيم السائد الذى سمح باختيار هذا الحكم الشمولى من البداية ومنع الناس من التمرد عليه، فالقيم التى كان يراها جيل الآباء الذين عاصروا الحرب، أو جيل المذنبين كما يطلق عليهم أوفا تيم كانت تتمثل فى الطاعة والولاء واحتقار كل ما يشذ عن المجموع والأهم من ذلك كله احترام أوامر من هم فى سلطة أعلى مثل الأهل، المدرسين، الحكام ورجال الدين، يقص أوفا تيم عن حياة الأخ، ولكنه فى الوقت نفسه يكتب، ولعل هذا هو الأهم، عن أبيه، أو عن كل جيل الأباء الذى ساهم فى نقل نسق القيم السائد (والفاسد) إلى الجيل الأصغر. فما فعله الابن ليس أكثر من الخضوع لنسق القيم التى شارك الجميع فى تلقينه إياه، الأب والأم وكل مؤسسات المجتمع.

أوفا تيم فى هذا النص الأدبى هو الراوى والكاتب معاً، يقص حياة الأفراد الذين عاصرهم ويعرض خطاب كل منهم: الأب الذى تطوع مرتين فى الحربين، ثم عمل فى وظيفة لم يكن يحبها، وكان يعيش ظاهر الحياة فقط وانتهى فقيراً، والأم التى صبرت على كل هذا، ولم تتذمر أبداً وكانت تعتقد أن الصمت والوقوف إلى جانب زوجها من أساسيات الحياة الزوجية، والأخت التى انهارت حياتها بسبب عدم قدرتها على الاعتراض على أبيها عندما رفض زواجها ممن كانت تحب. وإلى جانب ذلك هناك أيضاً خطاب

الكاتب/الراوى الذى استطاع فيما بعد أن ينظر بعين النقد لكل هذا، وخطاب كل المهمشين فى تلك الفترة من الروس واليهود والنساء.

النص يعتمد فى الأساس على التذكر، الذاكرة الخاصة بالكاتب، واستحضار تاريخه الشخصى. إلا أن التذكر لا يضمن فى النهاية الحقيقة خالصة، فالذاكرة لا تحتفظ بكل التفاصيل، بل أنها تقوم أحياناً بطمس بعض الحقائق لتظهر مشوشة مشوهة وأحيانا معدلة، وبعض التفاصيل تضيع من الذاكرة إلى الأبد. أى أن الذاكرة تنتقى ما تتذكره، ولهذا السبب اختفت الحبكة ولم يتبع الزمن الخط المتنامى التقليدى، فالأحداث فى النص هى لحظات يتذكرها الراوى بتفاصيل قد لا تكون كلها مكتملة. ومن هنا جاءت الجمل فى النص أيضاً غير مكتملة، وبعض الكلمات تتكرر فى الجملة نفسها، فتلك هى الكلمات التى علقت فى ذاكرة الكاتب، وتلك هى الجمل التى ظلت ذاكرة الطفل محتفظة بها.

واختار تيم لسرد الأحداث موقف المراقب، رغم أنه يسرد القصة فى الضمير الأول (ضمير الأنا)، فهو من ناحية ضلع أساسى فى الأحداث، لأنه يحكى عن حياته، ولكن القصة ليست قصته وحده أو قصة أخيه، ليست سيرته، فهو عندما يكتب عن الأخ يكتب بالضرورة عن الأب والأم والأخت، فيسرد الراوى الأحداث ويشرحها ويعلق عليها.

نص أوفا تيم فى النهاية هو صرخة تحذير لكل مجتمعات البشرية من تكرار نظام النازية، الذى لم يختف تماماً فى المجتمعات الشمولية وبقيت معه كل وسائله فى تكريس الخضوع

والانصـــياع والخـــوف والتســـلل لجميع مؤسسات الدولة بدءاً من الأســـرة فالمدرســـة فالمؤسســـة الدينية فوسائل الإعلام فالخطاب الرسمى للحكومة.

هبة شريف

"فوق عنف المعارك
يطفو السحاب وتنمو الأشجار والحشائش"

ويليام كارلوس ويليام

رفعنى أحدهم إلى أعلى – ضحك، تهليل، سعادة زائدة – تلك مشـــاعر تصاحب ذكرياتى عن تجربة، عن صورة، أول صورة انطبعـــت فى ذاكرتى، مع تلك الصورة بدأت معرفتى بنفسى، فى الذاكرة أنا داخل المطبخ آتٍ من الحديقة، فى المطبخ يقف الكبار، أمـــي، أبـــى، أختى. يقفون هناك وينظرون إلىّ. لابد وأنهم قالوا شـــيئاً، لا أتذكره الآن، ربما قالوا: أنظر، أو ربما سألوا: هل ترى شـــيئاً؟ ولابد أنهم نظروا إلى الخزانة البيضاء، التى قالوا لى عنها فـــيما بعـــد أنها كانت خزانة لحفظ المقشات. وهناك فوق الخزانة كـــان هناك شعر، شعر أشقر، تلك هى الصورة التى انطبعت فى ذاكـــرتى، كان أحدهم قد اختبأ خلف الخزانة، ثم ظهر، كان أخى، ثم رفعنى إلى أعلى. لا أتذكر وجهه الآن، ولا أتذكر حتى ما الذى كـــان يـــرتديه، فى الغالب زياً رسمياً، ولكنّ الموقف كان واضحاً تماماً: كيف أنهم جميعاً كانوا ينظرون إلىّ، وكيف اكتشفت الشعر الأشقر خلف الخزانة، ثم هذا الشعور، أننى قد رُفعت إلى أعلى – وأننى أطفو.

تلـــك هـــى الذكرى الوحيدة التى أملكها عن أخى، كان يبلغ آنـــذاك ستة عشر عاماً، وأصيب إصابة بليغة بعد ذلك بعدة أشهر

عندما كان فى أوكرانيا، حدث هذا فى نهاية سبتمبر.

١٩٤٣/٩/٣٠

بابا العزيز

أبلغك أننى قد جرحت للأسف الشديد فى التاسع عشر من سبتمبر، فقد أصابتنى قذيفة أطلقتها إحدى الدبابات وأصابت ساقىّ الاثنتين، فبتروهما. الساق اليمنى بتروها بعد الركبة، والساق اليسرى بتروها فوق الفخذ، لا أستشعر آلاما كبيرة الآن، حاول مواساة ماما فكل شىء سينقضى خلال بضعة أسابيع سأكون مرة أخرى فى ألمانيا، فتستطيع أن تزورنى، لم أكن متهوراً. والآن أنهى خطابى

. وسلامى إليك وإلى ماما و أوفا والجميع.

ابنك كرودل

يوم ١٦ أكتوبر من عام ١٩٤٣ مات أخى فى إحدى المستشفيات العسكرية التى تحمل رقم ٦٢٣.

أخى كان حاضراً وغائباً، هكذا كان شعورى به طوال فترة طفولتى، كنت أراه فى حزن أمى، فى اليأس الذى يشعر به أبى، فى الإشارات التى يتبادلانها. كانت هى تحكى عنه حكايات صغيرة متشابهة تصوّر كيف كان شجاعاً ومستقيماً. حتى عندما لم يكن الحديث يدور عنه، كان دائماً حاضراً، حاضراً أكثر من أى شخص آخر مات، حاضراً فى الحكايات، فى الصور

والمقارنات التى كان أبى يعقدها بينى - *الولد الذى جاء متأخراً* - وبينه.

أكثر من مرة حاولت أن أكتب عن أخى، ولكنى كنت لا أتجاوز كل مرة مجرد المحاولة. انهمكت فى قراءة خطاباته التى كان يرسلها من الجبهة، وفى يومياته التى كتبها عندما أُرسل إلى روسيا. كراس صغير بغلاف بنى فاتح كتبت فوق غلافه كلمة *ملاحظات*.

كنت أريد أن أقارن ما دوّنه أخى بسجلات كتيبة الجيش التى كان جندياً بها، كتيبة الجماجم (Totenkopfdivison)، من أجل أن أعرف تفاصيل أكثر من تلك الملحوظات المختصرة التى كان يدوّنها. ولكن فى كل مرة عندما كنت أقرأ فى سجلات الحرب أو فى خطاباته، كنت أنهى القراءة بسرعة.

ابتعاد خائف أقرب إلى الشعور الذى ولّدته بداخلى حكايات الطفولة، الشعور الذى كان ينتابنى عندما كانت تقرأ لى أمى قصة الفارس ذى الذقن الأزرق. كانت أمى تقرأ لى مساء حكايات الأخوين جريم، كانت تقرأ لى الحكاية أكثر من مرة، حتى تلك الحكاية عن الفارس ذى الذقن الأزرق. ولكن فى كل مرة كنت لا أريد أن أسمع النهاية. كان الأمر مخيفاً، عندما بدأت زوجة الفارس ذى الذقن الأزرق فى فتح الغرفة المقفلة رغم تنبيه زوجها ألا تفعل. عندما كانت أمى تصل إلى تلك الفقرة كنت أرجوها أن تتوقف عن القراءة. لم أكمل قراءة القصة حتى نهايتها إلا بعد سنوات كثيرة، بعد أن كبرت.

فتحت الباب، وعندما فتح الباب، اندفع نحوها شلال من الدم، وعلى الحوائط من حولها شاهدت نساء ميتات، بعضهن لم يتبق منهن سوى هيكل عظمى. فزعت بشدة حتى أنها نسيت أن تغلق الباب وراءها، ولكن المفتاح قفز فجأة ووقع فى الدم، ولم تستطع أبداً محو الدم منه، فى كل مرة كانت تمسح الدم من ناحية كان الدم يظهر على المفتاح من الناحية الأخرى.

سبب آخر جعلنى لا أكمل الكتابة عن أخى وأعنى بالسبب أمى. فطوال حياتها كان مستحيلاً بالنسبة لى أن أكتب عن أخي.كنت أعرف مسبقاً الإجابات التى كانت ستجيب بها على أسئلتى. لا تزعج الموتى. لم أستطع أن اشعر بالحرية وأنا أكتب عن أخى إلا بعد أن ماتت أختى، والحرية هنا كانت تعنى أننى كنت أستطيع أن أطرح كل الأسئلة، وألا أقيم اعتباراً لأى شىء أو أى شخص.

بين الحين والآخر كنت أحلم بأخى. كانت أحلامى عنه فى أغلب الأحيان مبتورة، مجرد بضع صور، مواقف، كلمات. ولكن كان هناك حلم انطبع فى ذاكرتى بكل تفاصيله.

أحد الأشخاص يريد الدخول إلى الشقة. هيكل ما يقف فى الخارج، هيكل مظلم ومليئ بالأوساخ والوحل، وأنا أريد أن أغلق الباب من الداخل. الهيكل الذى لم يكن له وجه، يحاول أن يدخل الشقة عنوة. وبكل قوتى أضغط على الباب من الداخل، أدفع هذا الرجل عديم الوجه بعيداً، الرجل الذى أعرف عنه بالتأكيد أنه

أخى. أخيراً أستطيع أن أغلق الباب، وأجدنى أمسك بسترة مقطّعة وخشنة فى يدى وأشعر لهذا بالفزع.

أخي وأنا

في أحلام أخرى كان لأخي له الوجه نفسه الذي كنت أراه في صوره الفوتوغرافية. في صورة واحدة فقط كان يرتدي الزي الرسمي، أبي كانت له صور كثيرة بالزي الرسمي، بالخوذة الحديدية أو بدونها، بقبعة الجبهة، في الزي الرسمي للجبهة أو في الزي العسكري العادي، يحمل مسدساً أو يشير إلى قنيفة من سلاح جوي. على عكسه لا أجد لأخي صوراً بالزي العسكري إلا تلك الصورة الوحيدة، صورته وهو ممسك بالبندقية القصيرة في يده، أثناء نداء التمام بالسلاح في فناء الثكنات. في الصورة لا تراه إلا من بعيد وبشكل غير واضح، فقط أمي كانت الوحيدة التي تزعم أنها عرفته على الفور في الصورة.

صورة أخرى له وهو بالزي المدني، التقطت أو تم التقاط هذه الصورة غالباً في الفترة التي تطوع فيها بسلاح العاصفة*، تلك الصورة احتفظت له بها في مكتبتي منذ قررت أن أكتب عنه: صورة التقطت له من زاوية سفلى، تبرز وجهه نحيلاً وبدون تجاعيد ولكن التجاعيد الوحيدة... كانت تعتلي حاجبيه وتعطي لوجهه انطباعاً متفكراً وقاسياً. شعره الأشقر كان قد "مشطه" إلى جانب واحد.

* قوات العاصفة، قوات تأسست في عام ١٩٢١ انبثقت عن الحرس الخاص لهتلر، واستخدمت ضد المعارضين لسياسة النازي كما عرفت بتطرف أفرادها الشديد.

قصـــة كانت أمى تقصها دائماً، كيف أنه أراد أن يتطوع من نفســه فى سلاح للعاصفة، إلا أنه تاه فى الطريق إلى هناك. كانت تقــص القصـــة كأن كل ما حدث بعد ذلك كان يمكن تجنبه. قصة سمعتها فى فترة مبكرة من طفولتى وسمعتها كثيراً حتى أننى كنت أرى كل شىء كأننى عشته معهم بالفعل.

١٩٤٢، فـــى ديسمبر فى أحد الأيام الباردة على غير العادة، عصـــر ذلـــك اليوم انطلق أخى إلى أوكسنتسول حيث ثكنات فرق العاصـــفة. كانت الشوارع مغطاة بالثلوج، ولا إشارة واحدة على الطريق، وتاه أخى عندما بدأ الظلام يحل، إلا أنه ظلّ يمشى حتى وصـــل إلى آخر بيت على الطريق المؤدى إلى الثكنات، وكان قد حددهـــا تمامـــاً فوق الخريطة. لم يكن هناك أثر لأى إنسان. أخذ يمشى حتى وجد نفسه فى أرض مفتوحة. السماء كانت خالية من السحب، وفوق المنخفضات ومكان البحيرات شبورة من الأبخرة. القمر كان قد ظهر خلف الغابة. أراد أخى أن يعود أدراجه، ولكنه وجد رجلاً، هيكلاً مظلماً يقف إلى جانب الطريق وينظر فى اتجاه القمـــر عبر الحقول المغطاة بالثلوج. للحظة تردد أخى لأن الرجل كـــان يقف مسمّراً، كما أنه لم يتحرك عندما سمع الخطوات التى كانت تصدر صريراً فوق الثلج. سأله أخى إذا كان يعرف الطريق إلـــى ثكنات النازى. للحظة طويلة جداً لم يتحرك الرجل، كأنه لم يسمع شيئاً، إلا أنها استدار بعد ذلك ببطء وقال :هناك. القمر كان يضـــحك. وعندما سأله أخى مرة أخرى عن الطريق إلى الثكنات، قـــال الـــرجل أن علـــيه أن يتبعه، وبدأ يتحرك بالفعل إلى الأمام،

بسرعة، بخطوات واسعة، كان يمشى دون أن يستدير خلفه، دون أن يأخذ راحة فى وسط الليل. كان الوقت قد تأخر فعلاً، بحيث أن أخى لم يكن ليلحق بطابور العرض. سأله أخى عن الطريق إلى محطة القطار، ولكن الرجل كان يمضى دون أن يجيب، تاركاً خلفه بيوت الفلاحين والحظائر التى تنطلق منها أصوات البقر. فى الطريق المخصص للدراجات كان الثلج ينقسم تحت الخطوات. سأل أخى بعد فترة إذا كانا على الطريق الصحيح؟ توقف الرجل ثم استدار وقال: نعم. نحن ذاهبان إلى القمر، القمر يضحك، يضحك لأن الموتى راقدون متيبسين.

ليلاً، عندما عاد أخى إلى المنزل قص كيف أنه شعر للحظة بالخوف، وأنه بعد أن وجد الطريق إلى محطة القطار صادف اثنين من رجال الشرطة اللذين كانا يبحثان عن مجنون هرب من مصحة عقلية من ألترسدورفر.

ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

فى اليوم التالى كان أخى قد استيقظ مبكراً وانطلق فى طريقه إلى الثكنات ومكتب التجنيد ووجدها، فقبل فوراً: طوله متر وخمس وثمانون، أشقر وأزرق العينين. وهكذا أصبح جندياً فى سلاح المدرعات، فى كتيبة الجماجم. كان عمره آنذاك ثمانية عشر عاماً.

كانت تلك الكتيبة تعتبر كتيبة الصفوة، مثلها مثل كتيبة الرايخ وكتيبة أدولف هتلر. كانت كتيبة الجماجم قد تكونت عام ١٩٣٩ من حراس معتقل داخاو. وكان الجنود يحملون شارة مخصوصة،

ليست مثل تلك التى يحملها جنود الوحدات الأخرى فى قوات النازى، فهؤلاء كانوا يحملون شاراتهم فوق قبعاتهم، كان جنود كتيبة الجماجم يحملون شاراتهم فوق ياقة قمصانهم.

الشئ الغريب فى الصبى أنه كان يختفي بين حين وآخر فى الشقة. ولم يكن يختفى لأنه كان يخشى عقاباً بل كان يختفى هكذا بكل بساطة دون سبب واضح. فجأة لم يكن أحد ليعثر عليه، كانت أمى تتساءل عن المكان الذى يختبئ فيه، إلا أنه لم يفش سره أبداً.

كان ذلك فى الفترة التى كانت صحة أخى فيها ضعيفة فعلا. شخّص دكتور مورتهورست مرضه بأنه فقر دم وضربات متزايدة فى قلبه. فى ذلك الوقت لم يكن من الممكن أبدا إقناع أخى بأن يلعب فى الخارج. لم يكن يخرج أبداً من الشقة، لم يكن يذهب حتى إلى المحل الذى كان يقع فوق الشقة ببضعة سلالم، كما لم يكن ليخرج إلى الورشة التى كان أبى يطلق عليها اسم المرسم. فضّل البقاء دائماً فى الشقة الضيقة المكونة من أربع حجرات ومطبخ وحمام، إلى جانب مخزن. ولكنه ورغم ضيق مساحتها كان يختفى فيها ولم يكن أحد ليعثر عليه. أمى كانت تخرج من حجرته، ثم تأتى بعد قليل. ولا تجده. كانت تنادى عليه، تبحث عنه تحت المنضدة وفى خزانة الملابس. لا شيء. كأنه تبخّر فى الهواء. ظلّ ذلك سرّه الكبير. الشيء الوحيد الغريب فى هذا الطفل.

بعد ذلك بسنوات، قالت أمى أنها كانت تعيد طلاء نوافذ البيت، عندما اكتشفت ردهة مختفية تحت حافة النافذة، كانت تلك

الـــردهة ســـهلة فى الوصول إليها وفيها وجدت أحجاراً، بطارية وكراسات وكتباً تصف حيوانات فى مناطق الصيد، أسوداً ونموراً وظـــباء. أما عناوين الكتب الأخرى فلم تستطع أمى تذكرها. لا بد أنـــه كان يجلس هنا ويقرأ. كان يسترق السمع ويسمع الخطوات، الأصوات، أصوات أمى وأبى، وهو لم يكن مرئياً.

عـــندما وجـــدت أمـــى مخبأه كان أخى قد تطوّع فى الجيش بـــالفعل. وفى المرة الوحيدة التى جاء فيها لزيارتنا نسيت أمى أن تسأله.

شـــاحب الوجـــه، وبشرته من فرط شحوبه شفافة، هكذا كان أخـــى فى طفولته. وهكذا استطاع أن يختفى ويظهر فجأة، يظهر جالســـا عـــند المنضـــدة كأن شيئا لم يكن. وعندما كان يسأل عن المكـــان الذى اختبأ فيه كان يقول فقط، تحت الأرض. وهى إجابة لم تكن خاطئة تماماً، كانت تصرفاته غريبة، ولكن أمى لم تلح أبداً علـــيه فـــى السؤال، كما لم تتجسس عليه، ولم تقص شيئاً عن كل ذلك على أبى.

كان طفلاً خوافاً، هكذا قالت أمى عنه.

لم يكن يكذب، كان طفلاً مستقيماً، وقبل كل شئ كان شجاعاً، هكـــذا كـــان أبـــى يقول. شجاعاً عندما كان طفلاً أيضاً. الصبى الشـــجاع، هكـــذا كانا يصفانه، كما كان يصفه الأقارب البعيدون. كانـــت ملاحظاتهم عنه تصاغ فى كلمات، وكانوا يوجّهونها له هو أيضاً.

المذكـــرات التى دوّنها فى يومياته تبدأ فى أول عام ١٩٤٣، الرابع عشر من فبراير، وتنتهى فى ٤٣/٨/٦ أى ستة أسابيع قبل إصـــابته، وعشرة أسابيع قبل وفاته. لم يترك يوماً واحداً دون أن يدوّنـــه. ثم، فجأة تتقطع اليوميات، لماذا؟ ما الذى حدث فى السابع من أغسطس؟ لا تجد بعد ذلك سوى ملاحظة مدونة بدون تاريخ، تلك الملاحظة التى سأتطرق إليها فيما بعد.

١٤ فبراير

ننـــتظر كل الإمدادات منذ الساعة العاشرة والنصف تدريبات على الإنذار.

١٥ فبراير

الخطر زال، الانتظار.

هكذا، يوما بعد يوم. ثم كتب ذات مرة، *الانتظار*، ثم *الروتين اليومى*، ثم *نداء التمام*.

٢٥فبراير

توجهـــنا إلـــى مكـــان مرتفع للهجوم.الروس ينسحبون. ليلاً: إطلاق النار عند هبوطنا المنحدر.

٢٦فبراير

المعـــركة، هـــزم الروس من قبل كتيبة واحدة. ليلاً: الوقوف على أهبة الاستعداد بدون ملابس شتوية مع البنادق الآلية.

٢٧ فبراير

تمشيط الموقع. صيد كثير. ثم التقدم إلى الأمام.

٢٨ فبراير

راحة لمدة يوم واحد، صيد كبير للقمل، التقدم إلى أونلدا.

توقفت أمام تلك الكلمات من قبل، وترددت في إكمال القراءة. هل يمكن أن يعنى بصيد القمل شيئاً آخر، شيئاً آخر غير مجرد البحث عن القمل فى الزى العسكرى؟ من ناحية أخرى لم يكن ليقول راحة لمدة يوم واحد، ولكن هذه الجملة: صيد كثير.

ما الذى يختبئ وراء تلك الكلمات؟ أسلحة؟ لماذا علامات التعجب خلف الجملة التى كان يستخدمها نادراً فى يومياته.

١٤ مارس

طائرات مقاتلة. ايفان (كان الروس يسمون بايفان، كأن يسمى اليهود مثلا بليشع أو ليفى) يهاجمون. الصيد الذى حصلت عليه (بندقية آلية متحركة) تطلق النار مثل المجانين لا أستطيع أن أتحكم فى انطلاق الطلقات، إصابة الهدف بضعة مرات.

١٥ مارس

نتقدم إلى كراكوف، بقايا بسيطة لبعض الروس.

١٦ مارس

فى كراكوف

١٧ مارس

يوم هادئ

١٨ مارس

مجمـــات لا تـــتوقف من قذائف الروس، قذيفة على موقعنا، ثـــلاث إصـــابات. بندقيتى الآلية لم تعد تطلق النار، أمسك ببندقية ٤٢ وأطلق النار، إطلاق نار مستمر.

هكذا هلم جراً. تدوينات صغيرة، بالقلم الرصاص، بخط غير منـــتظم، ربمـــا كتبها وهو فوق ظهر إحدى عربات النقل، أو فى محـــل إقامـــته فى الكتيبة، قبل أن يتوجه إلى مواقع المواجهة، يوماً بعد يوم: استعراض الأسلحة، مطر ووحل، تدريب بالذخيرة الحية، تدريبات. التدريب على قاذفات اللهب ٤٢.

٢١ مارس

نهر الدونيز.

رأس جسر فوق نهر الدونيز. على بعد خمسة وسبعين مترا، يدخن إيفان سيجارة، فريسة لبندقيتى.

كانـــت تلك هى الجملة التى توقفت أمامها من قبل ولم أكمل القراءة، كانت تقفز أمامى فوق الصفحة لترتطم بها عيناى، فكنت أغلـــق الكـــراس. ولم أكمل القراءة أبدا إلا عندما قررت أن أكتب عـــن أخى، أى عنّى، أن أسمح للذكريات أن تأخذ مكانها، هنا فقط كنت مستعدا أن أتمعّن فيما سجلته اليوميات.

فريســـة لبندقيتى: جندى روسى، ربما فى عمره نفسه. شاب،

بـــدأ لـــتوّه فى تدخين سيجارة، للنفس الأول، إطلاق الدخان، تلك المتعة فى التدخين، التى تتصاعد مع دخان السيجارة المحترقة، ثم الـــنفس الـــتالى. مـــا الـــذى كان يفكر فيه أثناء تلك اللحظة؟ فى الحصـــول علـــى أجازة قريبة؟ فى الشاى، فى بعض الخبز، فى صـــديقته، فـــى أمـــه، فى أبيه؟ سحابة من الدخان متفتتة فى تلك المنطقة الغارقة فى الرطوبة، الماء المتكوّن من الثلج المذاب كان قـــد تجمّع فى حفر صغيرة، اللون الأخضر فى المرعى. ما الذى كـــان يفكـــر فيه الجندى الروسى، إيفان، فى تلك اللحظة، فريسة لبندقيتى.

كان طفلاً يمرض كثيراً. كان يصاب فجأة بارتفاع غير مبرر فـــى درجـــة حـــرارة جسمه. حمى قرمزية. صورة له وهو فى فراشـــه، شـــعره الأشقر المهوش. أمى تقول أنه كان رغم آلامه متماسكاً بطريقة تدعو للاندهاش، طفل صبور. طفل به الكثير من الملامـــح المشتركة مع أبيه. صور لأبى مع الصبى فوق حجره، فـــوق الدراجة النارية، فى السيارة. أختى الأكبر من أخى بعامين كانت تقف إلى جانبهما غير ملحوظة.

الاســـم الـــذى كان يطلق عليه عندما كان طفلاً، لخترعه هو بنفسه، دادوم كوردلبومبوم.

عـــنى أنا، من جاء متأخراً ، كان أبى يعتقد أننى أفضل للبقاء مـــع النساء. فى خطاب كتبه إلى أخى فى روسيا عندما كان أبى مجندا فى السلاح الجوى ووزّع فى فرانكفورت على نهر الأودر،

قرأت تلك الجملة: أوفا كطفل صغير لذيذ، ولكنه مدلل إلى حد ما، ولكـــن عـــندما نعـــود مرة أخرى إلى البيت، ستعود الأمور إلى نصابها.

كنـــت ابـــن أمـــى، كما كان يقال فى ذلك الوقت. كنت أحب قعـــبق الـــذى ينبعث من النساء، هذه الرائحة المختلطة من العطر والصابون، كنت أحب وكنت أبحث عن نعومة الثديين والأفخاذ – تلـــك مشـــاعر تشـــكلت لدىّ فى وقت مبكر فعلاً، بينما كان أخى الأكـــبر يتعلق دائماً بأبى، حتى عندما كان طفلاً صغيراً. ثم كانت هناك أختى، أكبر منه بعامين، وأكبر منى أنا بثمانية عشر عاماً لم يهـــتم بها أبى أبداً أو يعطيها حناناً إلا نادراً، حتى أنها تحولت إلى شـــخص ســـهل الانكسار ودائم التذمر بسبب ذلك، فكان أبى يقول عنها أنها نكدية الأمر الذى كان يزيد من ابتعاده عنها.

كـــارل هايـــنس، الصـــبى الأكبر، لماذا هو بالذات؟ ثم كان يصـــمت وعلى وجهه كنت تقرأ مدى الخسارة والفكرة التى كانت تمـــر بخاطره: عن الشخص الذى كان يفضل أن يخسره بدلاً من كارل هاينس.

أخى، كان ذلك الصبى الذى لا يكذب، المستقيم دائماً، الذى لا يبكى، الشجاع، المطيع. المثل الأعلى والقدوة.

أخى وأنا.

أن أكتـــب عـــن أخى يعنى أيضا أن أكتب عن أبى والتشابه

معه، تشابهى معه، أدركه من خلال إدراكى لتشابهى مع أخى. أن أقترب منهما من خلال الكتابة، هو فى الوقت نفسه محاولة أن أفك أسر الموجودات فى الذاكرة، أن أتعرف إليه من جديد.

الاثنان يصاحباننى فى رحلاتى. عندما أصل إلى الحدود، أية حدود ويكون علىّ أن أملأ استمارة دخول بلد ما، أكتب اسمهما أيضاً، أبى وأخى، كجزء من اسمى، أكتب بحروف كبيرة فى المربع الخاص بالاسم: أوفا هانس هاينس.

كانت لأخى رغبة ملحة أن يكون شاهد تعميدى، أن يعطينى اسمه مضافاً إلى إسمي. وأبى تمنى أن يكون اسمى الثانى هو اسمه: هانس. أن يظل حياً على الأقل من خلال الاسم، من خلال الآخر، ففى عام ١٩٤٠ كان واضحاً أن الحرب لم تكن لتنتهى سريعاً، وأن الموت كان الاحتمال الأقرب.

لماذا تطوّع أخى فى القوات النازية؟ كانت أمى تعطى إجابات منطقية: *بسبب مثالياته. لم يكن يريد أن يتقاعس. لم يكن يريد أن يهرب من تحمل المسئولية.* ، هى وأبى أيضا كانا يفرقان تماماً بين قوات النازى وسلاح النازى. أثناء ذلك، بعد الحرب، بعد أن عرضت الصور البشعة والأفلام التى صُوِّرت بعد تحرير معتقلات النازى، عرف الجميع ما الذى حدث فعلاً. *جماعة السوء، المجرمون*، هكذا كان يقال عنهم بعد ذلك. إلا أن الصبى كان فى سلاح النازى. *قوات النازى كانت قوات جيش عادية. المجرمون كانوا الآخرين، المخابرات العسكرية. القوات العاملة.*

ولكن أول المجرمين كان أولئك فى مناصب القيادة، أولئك الموجودين فى أعلى المناصب الذين استغلوا مثالية الصبي.

فى البداية مجرد صبى صغير، ثم دخل فى شبيبة هتلر، مارشات عسكرية، لعبة الحرب، الغناء، صنع سلاسل للأسرى. كان هناك أطفال يقدمون بلاغات عن أهلهم. ولكن مع ذلك، فالأخ لم يكن يحب أبداً أن يلعب بالجنود، على عكسك أنت.

قالت أمى، أنا كنت ضد أن يتطوّع كارل هاينس فى قوات النازي.

وأبى؟

أبى، المولود فى نوفمبر عام ١٨٩٩، كان قد تطوّع باختياره فى الحرب العالمية الأولى وجاء توزيعه فعلاً فى قوات المشاة الرابضة على الجبهة. العجيب، أننى أكاد لا أعرف شيئاً عن ذلك الوقت الذى قضاه فى الحرب. كان حاملاً للراية، وأراد أن يكون ضابطاً بالجيش، إلا أن ذلك لم يعد ممكناً بعد خسارة الحرب، وهكذا وجد نفسه، مثل آلاف غيره من المسرّحين من جيش الحرب العالمية، ينضم إلى كتائب المتطوعين التى كانت تحارب فى البلقان ضد البلاشفة. هذا هو كل ما أعرفه عن تلك الفترة، فكل الوثائق والخطابات والشهادات قد احترقت عندما سقطت قنبلة على البيت.

توجد بعض الصور لأبى تعود إلى تلك الفترة. فى إحداها، التى تحمل تاريخ ١٩١٩ على ظهرها يمكن أن ترى مجموعة من الشباب فى زيّهم الرسمى. بعضهم يرتدى حذاء برقبة، والبعض

الآخـــر يـــرتدى جواربَ سميكةً من القماش. يجلسون جميعا فوق درجة حجرية عريضة يبدو أنها جزء من نصب تذكارى. هو كان ممـــدداً على الأرض مع شاب آخر أمام الجالسين فى وضع شهير آنـــذاك بالصور الجماعية. كان يستند بذراعه اليسرى إلى الأرض ويضـــحك، شـــاب أشقر وسيم. الجنود الشبان، كلهم حليقو اللحية وشعرهم مفروق فى المنتصف بعناية، كان يمكن أن يكونوا طلبة، وكـــانوا فى الأغلب كذلك فعلاً. أحدهم كان يرتدى خواتم واضحة فـــى الإصـــبعين، البنصر الصغير والخنصر، وآخر كان يرتدى خاتماً للبصم. كانوا يجلسون فى تراخ ويضحكون. من الأرجح أن أبى الذى كان يتمدد فى المقدمة قد قال نكتة. صور أخرى تظهره مـــع رفـــاق آخريـــن، لقطات سريعة من حياة الجنود. فى إحدى الصـــور يـــبدو أبـــى فوق فراش بدورين كُسر لتوّه. كان يرتدى منامـــته وقبعـــته العسكرية وضعها بأناقة فوق أذنه اليسرى. حياة الجـــندية حـــياة حلـــوة: للا للا للا. أكواخ فلاحين مغطاة بالقش، فلاحـــون يرتدون مرايل روسية، جنود أثناء تناولهم الطعام، سرج خـــيل معلق فوق الخوذات الفولاذية للجنود، تلك الخوذات الكبيرة بعـــض الشـــئ الخاصة بالجنود الألمان فى الحرب العالمة الأولى وعلـــى جانبـــيها ثقوب للهواء فى حجم الدمل الصغير. تلك كانت حـــياة أراد فى ذلك الوقت كثير من الشباب فى سن الثامنة عشرة والتاســـعة عشـــرة أن يحيوها: مغامرات، رفاق، هواء نقى، خمر ونســـاء، وقبل كل شئ عمل لا يخضع للروتين والنظام ، هذا ما كانت الصور تشى به.

إذا سألنى أحدهم عن وظيفة أبى، لا أملك هنا سوى إجابة واحدة: يعمل بتحنيط الحيوانات، كما أنه جندى وصاحب محل فراء.

كان يحب أن يحكى كثيراً للطفل، لى، كان يترك له وقتاً كثيراً، يفسّر له العالم. عن طريق الرسومات التاريخية، التى كانت تُوزّع فى علب السجائر آنذاك: فريتس العجوز جالساً تحت الجسر، واضعاً فمه أمام لعبته الهوائية، بينما الفرسان من الأعداء فوق جيادهم فوق الجسر، سايلديتس أثناء المعركة عند روسباخ وهو يرمى صفارته الطينية فى الهواء معلناً بدء الهجوم، جثة كارل الثانى عشر ملك السويد يحملها الضباط خارجين بها من المعركة. فطبقاً للشائعات فإن كارل الثانى عشر قُتل على يد جنوده. حكايات وقصص. أبى كانت له معرفة واسعة بالتاريخ، كان يعرف أن يحكى القصص المختلفة بطريقة تجعلها حية. ولكن عندما كبرت، وبدأت أسأل فعلاً كان الخلاف قد دبّ بيننا. وعندما أصبحت فى السادسة عشرة، بدأ خلاف عنيد بيننا أصبح مع الوقت خبيثاً. هو أصبح صارماً وضيق الأفق وكان يشعر دائما بأنه على حق، وأنا من جانبى كنت ألجأ إلى صمت عنيد دفعتنى إليه القواعد اليومية المكروهة التى وضعها أبى: لا بنطلونات "جينز"، لا سماع لموسيقى الجاز، التواجد فى المنزل من الساعة العاشرة مساء. كل ما كنت أتمناه كان لابد أن يخضع للقواعد وبالتالى كان ممنوعاً. نظام من القواعد لم أكن أفهمه ولهذا كانت المعارضة هى رد الفعل الطبيعى. ليس فقط لأننى أصبحت أكبر سناً وبدأت أراه بعين النقد، ولكن لأن ظروف الحياة كانت قد

تغيرت. فمظهره لم يعد يناسب الوقت فى بداية الخمسينيات، الفترة التى كانت الأمور تسير فيها على ما يرام بالنسبة له، الفترة التى استطاع فيها أن يكون شيئاً، الفترة من ١٩٥١ حتى ١٩٥٤. كانت تلك الثلاث أو الأربع سنوات بعمره كله. تطابقت خلالها رغباته مع الواقع الفعلى. كانت تلك الفترة هى فترة المعجزة الاقتصادية فى بيتنا. أخيراً، استطاع أن يحقق أشياء، أن ينجز. تأثيث الشقة، سيارة محترمة لونها بلون البحر، ومماركتها أدلر، لها أربعة أبواب وموديل ١٩٣٩، ذراع تغيير السرعات كان فى مقود السيارة. فى ذلك الوقت كان عدد السيارات فى هامبورج قليلاً لدرجة أن عساكر المرور بمعاطفهم البيضاء عند بوابة السد كانوا يحيونه فى كل مرة يمر فيها أمامهم. وهو من جانبه كان يهديهم علب السجائر فى عيد الميلاد، بعد أن تلفها أمى فى ورق ذهبى، ورباط فضى وتضع معها شجرة صغيرة من أشجار عيد الميلاد. كان يمر بالسيارة خلال شوارع المدينة ويتوقف عند كل تقاطع يقف فيه عسكرى مرور. كان يتوقف بجانب الموظف الواقف فوق خشبة صغيرة ويعطيه اللفافة. عيد ميلاد سعيد/. والعساكر من جانبهم، كانوا يشيرون له بالتحية فى كل مرة يمر بهم طوال السنة ويرفعون أيديهم إلى قبعاتهم تحية له.

كان أبى يحب أن يحييه الناس تحية عسكرية. فى كوبورج حيث تم إجلاؤنا أنا وأمى، أتى إلينا أبى فى إحدى أجازاته وأخذنى معه إلى الثكنة. كانت أمى قد خاطت لى نجوماً فضية فوق أكتاف معطفى. تركنى قبل أن يبلغ الثكنة أتقدمه. كان الحراس يؤدون تمام السلاح ويكتمون ابتساماتهم. تعلمت أن أصنع الصليب

المعقوف وأن أصنع خادماً من الورق. حكوا لى بعد ذلك، بعد أن كبرت، كان ذلك مضحكاً، حكى لى الأقارب والأصدقاء أننى صنعت الصليب والخادم متعرّجيْن.

كان ذلك هو أنا، الطفل البالغ من العمر خمس سنوات فى معطفه الرمادى، الطفل الذى صنع الصليب المعقوف والخادم من الورق. رائحة الجلد ممتزجة بالعرق، هذا كان أبى. رجل غريب بزى رسمى كان يرقد ذات يوم فى فراش أمى. تلك هى الذكرى الأولى التى أملكها عن أبى. على الأرض حذاؤه ذو الرقبة والنعل الحديدى بكرمشاته الجلدية. فوق الكومودينو، وتلك ذكرى واضحة جداً فى ذاكرتى، كان مسدسه فى حزامه. رأيته راقداً فاتحاً فمه ويشخر بصوت عال. كان قد أتى فى أجازة. إذا ما تشممت أوستيك ساعتى يحضرنى، أجده أمامى مرة أخرى. رائحة الجلد الممتزج بالعرق، وهو، أبى، يصبح قريباً منى فيزيقياً بشكل أكبر من أىّ ذكرى متصورة عنه.

ثم فيما بعد، ذات يوم، كان الكبار يكلموننى ويقنعوننى، ويمنعوننى أن أصنع من الورق ما تعلمته لتوّى، الصليب المعقوف، وألا أقول عاش هتلر (هايل هتلر). أتسمع. أبداً، لا تفعل ذلك أبداً. قيل ذلك للطفل، الذى هو أنا، فى صوت خفيض وبنبرة متواطئة.

كان ذلك فى اليوم الثالث والعشرين من أبريل من عام ١٩٤٥، والجنود الأمريكيون كانوا قد دخلوا المدينة بالفعل.

من علّمنى ذلك ، أن أصنع من *الورق الصليب المعقوف*؟ لم تكن أمى، التى كنت أعيش معها آنذاك فى كوبورج. كانتَ أمى تنفر من كل ما يتعلق بالجيش، التدريب اليومى، لعبة الحرب والحرب نفسها، كانت أمى تنفر من كل ذلك نفوراً عميقاً، حتى من قبل موت أخى، ومع ذلك كان للزىّ الرسمىّ تأثير خاص عليها. إلا أنها لم تكن لتعلمنى أن أصنع من الورق الصليب المعقوف. كان فى الأغلب أبى من علمنى ذلك، عندما عاد إلى المنزل ذات مرة فى أجازة، أو كان كل الآخرين فى الجيش وكوادر الحزب النازى، الذين كانوا يدخلون ويخرجون عند السيدة شميت، أرملة رئيس الحزب فى دائرتنا والتى كنا نسكن فى بيتها.

إذا أتى الروس، سأشنق نفسى، كانت السيدة شميت تقول ذلك دائماً.

خطاب من أخى لأبى فى الحادى عشر من أغسطس من عام ١٩٤٣:

لو تنهار روسيا سريعاً. لابد أن نعبئ عشرة أضعاف فرق الجيش الموجودة فعلاً. أعتقد أنه قد حان الوقت لذلك، ولكننا لن نستطيع أن ندخل روسيا هذا العام.

بالنسبة لى كل شىء كما هو، أنا بصحة جيدة، آكل جيداً، لا أعانى سوى من قلقى على من هم فى المنزل، يومياً يعلن عن هجوم بالطائرات الإنجليزية. (لو يتحلى الألمان بضبط النفس) هذه ليست حرباً، هذا قتل للنساء والأطفال، وهذا ليس إنسانياً. أتمنى أن يصلنى منك ومن أمى خطابات فى القريب العاجل، ولكن أكتب لأمى ألاّ تبعث لى بأى طرود، خسارة أن تضيع كل تلك

الأشـــياء التى ترسلها، ولنا لدىّ بالفعل الكثير. الأفضل أن تعطيه لأوفـــا الصـــغير اللذيـــذ. والآن يا أبى العزيز أبعث لك بتحياتى العطرة وأتمنى لك التوفيق.

رفيقك كارل هاينس

لم أجد فى ألبوم الصور الخاص بأبى صوراً لروس مجلودين أو مشـــنوقين أو صوراً لقتل المدنيين، ولكنى وجدت صوراً عادية جداً لبيوت وشوارع ومدن مهدّمة، هل كانت تلك كراكوف؟ أخى كان قد تم توزيعه لإعادة الاستيلاء على كراكوف فى عام ١٩٤٣. حتى إذا فرضنا أنه لم يشارك فى قتل المدنيين والأطفال والنساء.. الذى قامت به قوات النازى، لأنه كان يخدم فى وحدة المدرعات، فقـــد قام بالتأكيد بمواجهة الضحايا من المدنيين بأية صورة، رأى بـــالقطع الـــناس وهـــم يموتون جوعاً، والمشردين وأولئك الذين طـــردتهم الحـــرب من بيوتهم، ومن مات من البرد، ومن قُتل. لم يكـــن يـــتحدث عن أولئك الناس، كان ذلك العذاب الذى يشعر به الروس، هذا الدمار وهؤلاء الموتى كانوا غالبا شيئاً عادياً.

كتب الجنرال هاينريشى الذى تولى فى عام ١٩٤١ قيادة أحد الفيالق فى منطقة الوسط، فى خطاب إلى زوجته:

إن المـــرء لا يشـــعر بـــالقوة المدمرة للحرب إلا عندما يهتم بالتفاصـــيل أو بـــأقدار البشـــر. يمكـــن تأليـــف كتـــب حول هذا الموضـــوع.اختـــفى السكان من المدن تقريباً. فى القرى لا تجدى سوى النساء والأطفال والكهول. كل شىء آخر يهيم مقطوعاً عن

موطـــنه، فـــى روسيا المترامية الأطراف، الناس طبقاً للمعلومات الواردة عن الأسرى تحولوا إلى كتل إنسانية متكوّرة فوق بعضها فـــى محطـــات القطار ويتسولون الخبز من الجنود. أعتقد أن عدد الضحايا من أولئك المخلوعين عن جذورهم والذين تخلفهم الحرب وراءهـــا سواء ماتوا بسبب الحرب أو بسبب الإجهاد الزائد يماثل عدد الخسائر البشرية التى سقطت فى المعارك الدموية.

يوميات كتبها الجنرال هاينريشى:

قلـــت لبويتلسباخر ألا يشنق الفدائيين من الروس أمام نافذتى، منظر غير جميل فى الصباح.

جرياسنوفا. الثالث والعشرون من نوفمبر عام ١٩٤١:

بعد انتهاء مناقشة شكل الاحتفال بشهداء الحرب، إذ أن اليوم هـــو ذكـــرى ضـــحايا الحرب(...) بعد ذلك نزهة حتى "الروسى الميـــت" حيـــث تنتهى النزهة بمنظر غير عادى. هناك يرقد أحد جـــنود الـــروس ميتا متجمداً فى البرد و غير مدفون منذ أسابيع. يجب أن أقول للسكان أن يدفنوه.

كانـــت أمى متقدمة فى السن فعلا، فى الرابعة والسبعين من عمـــرها، عـــندما استقلت شاحنة لإحدى شركات السياحة المتجهة إلـــى روسيا. كانت رحلة بالحافلة تخترق ألمانيا الشرقية ثم بولندا ثـــم روســـيا البيضاء حتى لننجراد ومن هناك يعودون عبر فنلندا والســـويد إلـــى ألمانيا مرة أخرى. كان يحدوها أمل ليس له سبب

فـــى أنهـــا تستطيع خلال تلك الرحلة أن تزور قبر أخى أو على الأقـــل أن تكون فى منطقة قريبة منه. كانت تلك هى أمنيتها، أن تـــزور القبر. فى مقبرة الأبطال، فى سنامينكا، فى أوكرانيا، القبر رقم ل ٣٠٢.

الصـــبى الـــذى كانت كل أمانيه أن يمتلك حذاء برقبة، حذاء برقبة وبأربطة يصل حتى سمانة الساق. لم يكن يحب الخدمة فى شـــبيبة هتلر. وعوقب أكثر من مرة بأداء التمرينات الشاقة. حكم عليه قائده أن يزحف على بطنه فى الشارع وسط المارة. لم يقص علـــى أحد فى المنزل شيئاً من هذا، حتى رآه أحد معارف العائلة وهـــو يزحف فى الشارع وأخبر أبى الذى تقدم بالشكوى إلى قائد المـــنطقة. ومـــنذ ذلـــك الحين لم يحدث أبداً أن عوقب أخى بأداء التمرينات.

كان طفلاً حالماً، وصبياً شارد الفكر، وفى بعض الأحيان كان يختفى، هكذا بدون أى سابق إنذار كما تقول أمى، كأنما خطفه أحد الأشـــباح. كـــان يصـــمت ولم يكن أحد يعرف ما الذى يدور فى رأســـه. كان طفلاً مطيعاً، طفلاً صامتاً، حالماً. هذا ما تقوله أمى، ولكـــن هذا ما تقوله أيضا عنى، وربما هى على حق، على الأقل من وجهة نظرها. كان صمتى يؤكد لها صورتها عنى، أننى طفل مطـــيع. كان أبواى يعتقدان أننى أذهب لإحدى الجماعات الشبابية فـــى هامـــبورج الـــتى تتبع جامعى طوابع البريد، بينما أسير فى شـــوارع ســـانت بـــاولى، الحـــى الذى كان سيء السمعة الملىء

بكازينوهات القمار والبارات ومحلات الدعارة. كانت تلك المنطقة هى العالم بالنسبة لى، على عكس منزلى، الشقة الصامتة المرتبة، التى لم يدر فيها الحديث عن الجنس فى حضورى أبداً وربما أيضا فى غيابى. كنت أسير فى شارع تال وأرى النساء واقفات فى مداخل البيوت، وأرى البحارة السكارى والحانات التى تعرض عروض الاستربتيز، البارات والحانات، التى كان أبى يقول عنها أنها ملتقى *الحثالة البشرية*، المهربين وتجار المخدرات والمقامرين *والناس الذين يبيعون أنفسهم*. الضوضاء، الضحك وضحكات النساء العالية كانت تغرى الناس بالاقتراب ومع ذلك كانت تلك النسوة بعيدات جداً عنى. عندما كنت ألتصق بالباب فترة طويلة كان الشخص الواقف أمامه يقترب ويقول، امش من هنا، يا صغير. تلك النظرات التى كنت أسرقها، النساء اللائى كن يرتدين تحت معاطفهن المفتوحة ملابسهن الداخلية فقط وجوارب حريرية ومن حين لآخر، عندما كان يقترب منهن أحد الرجال كن يفتحن المعطف.

لم أجد أى شئ فى المذكرات مُدَّوناً عن الأحلام، ولا عن أىّ أمنية، ولا عن أىّ سر من أسراره.هل كان لأخى صديقة؟ هل كانت له علاقة بأية امرأة؟ تلك الرغبة الملحة أن تلمس جسداً آخر، أن تقترب منه، الاقتراب الذى يصبح ملحّاً وينتهى بأن تدخل فى الجسد الآخر، أن تشعر بنفسك داخله أى من خلاله، حتى تعرف كيف تذوب فيه.

فـــى يومـــياته لا يـــتحدث سوى عن الحرب، عن التحضير للحرب والقتل والبراعة فى القتل بشتى الوسائل مثل قذف اللهب، القـــنابل، التصـــويب عـــن بعد. ذكر ذات مرة أنه شاهد منوعات مســـرحية، وذات مرة مسرحية ومرة أخرى فيلماً لابد أنه رآه فى ســـينما الجـــبهة. *٢٤ أبـــريل. بناء الجسور. مدرعاتنا تتقدم. ٣٠ أبريل. سينما. الظل الكبير.*

ولا تعليق. هل أعجبه الفيلم؟

عـــندما يســـرق مـــنك تاريخك الشخصى ويسرق منك حتى احـــتمال أن تجرب مشاعرك فى المستقبل، لا يتبقى لك سوى أن تعيش الموقف المفروض عليك: أن تكون شجاعاً.

فى العلبة الكرتون الصغيرة التى أرسلت إلى أمى بعد موته، توجـــد صـــورة لإحدى الممثلات، هانلوره شروت. وجه مستدير رقـــيق، عيـــنان عســـليتان، شعر بنى داكن، شفاه ممتلئة تحيطها غمازات.

الظل الكبير.

١٩٤٣/١٠/٩

ماما العزيزة

كتبت لأبى أننى قد أصبت إصابة بالغة.

والآن أكتب لك لأخبرك أنهم قد بتروا ساقىَ الاثنتين.

ستتعجبين بالقطع من خطّى، ولكن فى مثل الوضع الذى أرقد

فيه الآن لا يمكننى أن أكتب أفضل.

لا تعتقدى أنهم قد بتروا ساقىّ تماماً، فالساق اليمنى بتروها تحت الركبة بحوالى ١٥ سم، واليسرى فوق الركبة ب ٨ سم.

لا أشعر بآلام كبيرة، وإلاّ لما تمكنت من الكتابة.

ماما العزيزة، لا تبكى، كونى شجاعة، سأستطيع المشى بالساق الصناعية تماماً كما كنت أمشى من قبل، ولكن الأهم من ذلك، أن الحرب انتهت بالنسبة لى، وعاد إليك ابنك مرة أخرى، حتى ولو كان مصاباً بعاهة شديدة.

مرة أخرى يا ماما العزيزة لا تقلقى ولا تهتمى ولا تبكى، فكل هذا يجعل الموقف أصعب علىّ.

سلامى إلى هانا وأوفا.

لا تقولى شيئاً لأوفا، فعندما أعود بساقىّ الصناعيتين فى غضون ١ إلى ٢ (غير مقروء) سيعتقد أننى كنت دائماً بساقين صناعيتين.

تحياتى القلبية.

ابنك

كرودلبومبوم

كتب هذا الخطاب بالقلم الرصاص بخط مشوّه، حروفه أحياناً أكبر من اللازم، غالباً بسبب تأثير المورفين. فى التاسع عشر من شهر سبتمبر من عام ١٩٤٣ أصيب أخى فى دنبر. لابد أنه ظل ملقى فى مكانه لليلة بأكملها، بساقين مهشمتين قام رفاقه بالتأكيد بربطهما.

فى تلك الليلة حلمت أمى أن طرداً وصل بالبريد وأنها عندما فتحته وجدت شاشاً وأربطة، وعندما فكت الأربطة الطويلة البيضاء، سقطت منها زهور البنفسج.

هذا الحلم حلمت به أمى بالفعل فى الليلة التى أصيب فيها أخى، قصته على بعض الأقارب والأصدقاء، وقد ملأها الخوف. التلغراف الذى حمل إلينا نبأ إصابته أتى بعد ذلك بعدة أيام، فى الوقت نفسه الذى وصلت إلينا فيه أنباء موته.

كانت دائماً لا تعترف بتلك الطقوس اليومية السحرية البسيطة والتى لا يأخذها أحد على محمل الجد، مثل أن تبصق على قطعة نقود وجدتها فى طريقك، أو أن تنقر على الخشب ثلاث مرات، كانت تنفر من أى اعتقاد فى العفاريت، من الاعتقاد فى الخرافات. إلا أنها عندما كانت تحكى عن ذلك الحلم، كانت تقول أنه توجد أشياء بين السماء والأرض لا يعرف عنها أحد شيئاً. ومن هنا استخلصت لنفسها ألاّ تظلّ تفكر فى ذلك الأمر، ألا تثقل على أحد به. ولكنها كانت متأكدة من شئ واحد: أنه يوجد شكل من أشكال التواصل بدون اللغة يتخطّى حدود الزمان والمكان.

السيدة تيم المحترمة

وردت إلينا الأشياء التالية وهى تخص ولدكم الذى سقط فى المعركة فى السادس عشر من أكتوبر من عام ١٩٤٣، رجل قوات العاصفة كارل هاينس تيم:

عدد ١٠ صور شمسية

عدد ١ مشط
عدد ١ معجون أسنان
عدد ١ علبة تبغ
عدد ١ مفكرة
عدد ١وسام مصابى الحرب أسود اللون
عدد ١ شهادة حصوله على وسام الصليب الحديدى
عـــدد ١ شـــهادة الحصول على وسام مصابى الحرب أسود اللون
عدد ١ تلغراف
خطابات متنوعة وورق رسائل
وســـوف ترســـل هذه الممتلكات إليكم فى أقرب وقت. هايل هتلر.
إمضاء
(غير مقروء)
القائد الأعلى لقوات العاصفة

فـــى الملفـــات والتقارير والكتب التى كانت موجودة فى ذلك الوقت، تجد دائماً اختصارات جديدة، غير مفهومة، أحرف ملغزة، كبـــيرة فـــى العادة، أحرف تختبئ وراءها نظم تراتبية وهيراركية ولكنها تخبرنا الشيء الكثير عن طبيعة هذا النظام، أحرف يختبئ وراءها تهديد مباشر.

خطابـــات أخـــى وأوســـمته ويومياته حفظتها أمى فى علبة

كـــرتون صـــغيرة. العلبة الكرتون ظلّت فى درج تسريحتها طيلة خمسين عاماً. نونشالانس هو اسم الصابون الذى كانت أمى تحتفظ بعـــدد مـــنه فى درج التسريحة، تماماً مثل ماء الكولونيا والعطر الخـــاص بها. كانت الرائحة مميزة ولا يمكن أن تختلط مع رائحة أخـــرى، تلـــك الرائحة هى التى كانت تبقى فترة أطول من رائحة جســـمها، وظلـــت تلـــك الـــرائحة أيضـــا عالقة بالعلبة الكرتون وباليوميات.

الخطابات التى كتبها أخى لأمى ولأبى نظّمتها ووضعتها فى أظـــرف تحمل الآن العناوين. *خطاب يحمل زهور قرنفل مجففة. خطاب يحمل تقريراً عن البندقية الآلية.*

الحكايـــات الـــتى كانت تحكى دائماً عن أخى: قام ذات مرة بـــإهداء كل مجموعة الطوابع التى كان يحتفظ بها. لم يبادلها حتى كمـــا يقـــول أبى بكل فخر. الصبى الذى اعتنى ذات مرة بسحليّة مائـــية. الصـــبى الـــذى كان حالماً ولهذا السبب كان تلميذاً غير مجـــتهد. كيف أنه قفز ذات مرة عندما كان طفلاً صغيراً جداً من فـــوق منصة الخمسة أمتار فى حمام السباحة العمومى. كيف أنه تســـلّق الســـلم إلى منصة القفز وقفز هكذا بكل بساطة فى الحمام. وصاح أبى، برافو، وقال أبى أيضاً، هيا، فلتصعد مرة أخرى. قفز هكذا بكل بساطة. الصبى الذى كان يجيد لعبة الكرة. الصبى الذى اكتشـــف أن نبضـــات قلبه أبطأ من اللازم وذهب لهذا السبب إلى مصحة فى ناوهايم. وهناك تعرف إلى صبى آخر فى عمره نفسه وطـــولـــه تقريـــباً. كان الاثنان فى ذلك الوقت غالباً فى الثانية أو

الثالثة عشرة. كانا يقفان يلف كل منهما ذراعه حول الآخر، وينظر أحدهما فى وجه الآخر. ينظران إلى بعضهما البعض، منشرحى الصدر ومبتسمين ابتسامةً جميلةً. كان الصبىّ الآخر يدعى هاينريش. وتزعم أمى أنه كان أفضل صديق لأخى.

هو نفسه، حياته، تجدها فقط فى تلك الخطابات القليلة التى كان يرسلها وفى يومياته. تلك الذكريات *المحفوظة فى الورق*.

الطعام المفضّل لديه كان البطاطس المهروسة بالبيض المقلى. فى صفار البيض السائح كانت أمى تضع الزبد الساخن، كان يحب الكرنب أيضاً ويقول عنه وهو طفل، كرنبى. عندما كان يمرض كان يفضل أن تعد له أمى الأرز باللبن مع السكر والقرفة.

لم يكن يشرب الكحول، لم يكن يدخن. ظل هكذا حتى ذهب إلى الجبهة. السجائر ترسل إلى أبى. ولكنه بعد ذلك أصبح يشرب، أصبح يحتفل كل ليلة حتى الصباح، عندما يسمع التمام. *أداء التمرينات العسكرية فى حالة سكر*. هكذا كانوا يصقلون الصبية.

لم يكتب فى يومياته شيئاً عن الأسرى. لم يكتب فى أىّ موضع عن الأسرى من جنود العدو. فقد كان يذكر فقط فى يومياته أن الروس يقتلون على الفور، أو أنهم لم يستسلموا. ربما كان يشعر أن موضوع الأسرى موضوع تافه ولا يستحق بالتالى الكتابة عنه.

على بعد ٧٥ متراً يدخن إيفان سيجارة، فريسة لبندقيتى.

هاينيريش هيملر قال فى إحدى خطبه لجنود الصاعقة النازية فـــى شتشـــتن فى الثالث عشر من يوليو من عام ١٩٤١، أى بعد ثلاثة أسابيع من دخول القوات الألمانية فى روسيا:

هـــذه الحـــرب حـــرب بين أيديولوجيات مختلفة وحرب بين الأعـــراق.فلسفتنا فيها هى الفلسفة النازية التى تستند إلى نقاء دمنا الشمالى وعلى قيمنا الجرمانية، من أجل بناء عالم نتصوّره: عالمٍ جمـــيل، مستقيم وعادل، عالم قد تشوبه بعض الأخطاء، ولكنه فى مجمله عالم سعيد وجميل وحضارى، تماماً مثل بلدنا ألمانيا. يقف فـــى مواجهتنا شعب قوامه ١٨٠ مليون نسمة، خليط من الأعراق والشـــعوب، أســـماؤهم حـــتى لا نستطيع نطقها، وهيأتهم تشكلت بطريقة تجعلنا لا نتردد أبداً فى القضاء عليهم بلا رحمة أو شفقة.

هـــل شاركت كتيبته، كتيبة المدرعات الرابعة فى فريق القتل الـــذى قـــام بتلك التنقية العرقية المزعومة؟ الحرب ضد الفدائيين والمدنيين واليهود؟

قصـــف المـــنزل بالقـــنابل وبعد ذلك بقليل مات الصبى، تلك كانـــت ضربة القدر الشديدة التى أصابت العائلة، وكانت تلك هى الحرب، تدمير كل شيء.

خطاب من أبى إلى ابنه كارل هاينس
الجمعة، ٦ أغسطس ٤٣

ابنى الحبيب الطيب كارل هاينس

اليوم عدت من أجازة نهاية الأسبوع من هامبورج، كانت تلك العطلة قد امتدت لأربعة عشر يوما، ففى تلك الأثناء راحت الطائرات تقصف مدينتنا الجميلة هامبورج أربع مرات. ٨٠ %على الأقل من مدينتنا الآن عبارة عن حطام ورماد. كنت فى تلك الأثناء عائداً لتوّى من محطة القطار مع أمك ووصلنا المنزل فى حوالى الساعة الواحدة صباحاً، وفى الواحدة والربع انطلقت صفارات الإنذار، ولأننى أدركت أن طائرات العدو تلك المرة كانت تطير فى أسراب كبيرة، صرخت فى كل من كان نائماً فى فراشه، وطلبت منهم النزول إلى المخبأ وبعد عشرين دقيقة أصابت قنيفة منزلنا. أخذ الإنجليز يسكبون الفوسفور على كل شىء، وفى كل مكان اشتعلت حرائق. لم يتبق من منزلنا سوى بقايا من السور.

أبى الذى كان فى تلك الأثناء بالصدفة فى أجازة من الجبهة، وأختى التى كانت فى تلك الأثناء فى العشرين من عمرها، أخذا يجمعان بعض الأشياء كيفما اتفق، كانت النار قد بدأت فى الإمساك بالدور العلوى، واستطاعا إنقاذ منضدة صغير، ومقعد وحقيبة من البدروم، كما أنقذا من النيران أيضا فوطاً وفراشاً من الريش وتمثالين وطبقاً من الصينى وعلبة صغيرة افترضت أختى أن بداخلها أشياء قيمة، وكان بها بالفعل زينة شجرة عيد ميلاد المسيح.

أخذا الأشياء التى كانت أمامهما بالصدفة، وكانت الألواح الخشبية وأجزاء من السور قد بدأت بالفعل فى السقوط. حملا الأشياء التي أنقذاها إلى الشارع، حيث كان كل السكان الآخرين واقفين أيضاً، ومن بينهم أمى والطفل الذى هو أنا، فوق ذراعها.

وحولنا كانت البيوت تحترق.

كل شئ فيماعدا ذلك كان حكايات سمعتها: كيف أن أختي حاولت أن تنقذ بعض الملابس والأغطية، إلا أن أبى أزاحها جانباً عندما سقط أحد الألواح الخشبية. كيف أن زجاج النوافذ فى الدور الثانى للبيت المؤجر قد بدأ فى الانفجار واحداً بعد الآخر بفعل الحرارة. كيف أن مطراً من الرماد أخذ يتساقط من السماء وجعل الكون من حولنا مظلماً. هذا الرماد كان عبارة عن كل ما ادّخره الجميع عبر السنوات واقتنوه. تساقط الرماد بلون قذر فوق الشعر وفوق البلوزة. كان ذلك يوماً حاراً من أيام الصيف، ٢٥ من يوليو من عام ١٩٤٣.

صورة أخرى واضحة تصاحب الذكرى: شعلات اللهب العملاقة، وعلى يمين وشمال الشارع الأشجار المحترقة.

وأيضاً: الشعلات الصغيرة الملتهبة التى كانت تطفو فى الهواء.

الخوف من أن تفقد الحكايات بشاعتها عند الحكى. *الذكرى، تكلّمى*. ولكن إذا نظرت إلى تلك الفترة من منظور اليوم أجد أنها سلسلة من العلاقات المرتبطة بعلاقة سببية ترتبُ كل شىء فى

منظومة مفهومة وملموسة. تلك الصورة، الطفل الذى هو أنا، فى ذلـــك الوقت فى الثالثة من عمرى، وقد غُطى بفوط مبللة ووضع فى عربة أطفال راحوا يجرّونها فى الشوارع.

اللهـــب الطـــافى فى الهواء لم أجد له سبباً إلا فيما بعد عندما بدأت أحكى. كانت قطعاً من ستائر النوافذ وقد أطاحت بها عاصفة النار خارج البيوت المحترقة.

حـــتى بعد سنوات من الحرب كانت تلك التجارب تصاحبنى أثناء طفولتى، فقد كان الناس يقصونها مرات ومرات، الأمر الذى قلـــل مـــن حدة الفزع شيئاً فشيئاً. كيف أن أختى الكبرى وأبى قد وضعا كل ممتلكاتنا التى أنقذاها فى منتصف الشارع وكيف أنهما وضـــعا الطفل، الذى هو أنا، فى عربة الأطفال وغطيانى بالفوط، فـــوط بللاها من إحدى مواسير المياه المنفجرة، وكيف أن الأبوين وأخـــتى قد تركوا بعد ذلك الأشياء القليلة التى أنقذت فى الشارع، ومشوا فى شارع أوستر فى اتجاه شولفيج، وعلى اليمين والشمال البـــيوت المحـــترقة، خاصة الناحية اليمنى من الشارع التى كانت تحـــترق بشـــدة، فحـــتى منطقة لاشتروبسفيج، كنت لا تجد سوى البـــيوت المحـــترقة، كـــيف أنهم قد هربوا إلى المخابئ المكتظة بالـــناس، الذيـــن كانوا يجلسون متمالكى أعصابهم بشكل غريب، كـــيف أن أبـــى قـــد تطوع خلال الليلة نفسها فى سلاح الطيران، وكـــيف قابلـــته أمى وأختى بعد يومين تخللهما هجوم بالطائرات، قـــابلاه عند أحد الأقارب، غير حليق، محمر العينين، يرتدى زيّه

العسكرى الصيفى الأبيض وقد اتسخ تماماً. ما حكاه هو والآخرون: الناس الذين وجدوهم فى بدروم البيوت المحترقة متشبثين بمواسير المياه، وكيف راحوا يتساقطون مع هبوب أول تيار هواء مثل التراب. آخرون كانوا قد هربوا إلى الخارج وأدركتهم النيران وقذفت بهم إلى المناطق المحترقة، وكيف أن بعضهم الآخر قد ألقى بنفسه وقد احترقت ملابسه فى المصارف، ولكن فوق الماء كان الفوسفور يحترق أيضاً.

المخابئ التى هربت إليها أمى مع أختى ومعى، كانت فى ناصية شولفيج، فى البيت الذى يقع فيه محل الجلود *الإسرائيلية*. المحل مازال موجوداً حتى اليوم. وقد حكت أمى أنه فى عام ١٩٣٨ علّقت بالفتارين لافتات كبيرة مكتوب فوقها: *رجاء الانتباه، بالرغم من اسم المحل، إلا أن مالكه آرى نقى. محلات إسرائيل للجلود.*

كانت تلك أيضاً من بين الصور التى احتفظت بها عن وقت مبكر من حياتى: الناس فى المخابئ. رجل عجوز يبكى. امرأة تمسك فوق حجرها بقفص طيور، يقفز داخله عصفور هنا وهناك وقد أثاره الفزع. طائر آخر يرقد فوق ظهره فى القفص ، كأنه قد سقط لتوّه من فوق أرجوحة القفص.

خطاب من أخى إلى أبى:
١٩٤٣/٨/١٧

وصـــلنى الـــيوم خطاب ولم أستطع أن أصدق أن ٨٠% من هامبورج قد تم تدميره تماماً، شعرت بالدموع فى عينىّ، وكان هذا يتـــناقض مع شدة البأس التى اكتسبها المرء بمرور الوقت، فرغم كـــل شىء كانت تلك المدينة تضم بيتنا، الوطن، المكان الذى كنا نملـــك فيه السعادة والذكرى، وذلك الكنز الذى لا يمكن تعويضه، يقال أنه انتهى، اختفى، تم تدميره.

كان اليهود ممنوعين من دخول المخابئ.

رأيت ذات مرة أحد المخابئ، وقد بنى فوقه بعد الحرب منزل عائلى. اشتراه بعض أصدقائى. كان الدَّرجُ المؤدى إلى المخبأ مثل العـــودة إلى الطفولة، الرطوبة، ضيق المكان، الإحساس بأنه مثل الماســـورة، مـــثل المـــتاهة، إذ أن المخبأ كان قد قسم من الداخل بحوائـــط. بعض مواسير التهوية الصدئة كانت تمر فوق الحوائط. لافتات: التدخين ممنوع. محبس الغاز. شعرت بهبوط غريب جداً فـــى الدورة الدموية أتى أمام عينىّ بصور أخذت تمرُّ واحدة بعد الأخـــرى. الشـــىء الغريب فعلاً هو أن الضوء إذا ما انطفأ كانت الحوائـــط البيضاء تشع. مازال حتى اليوم تشع ضوءاً، بعد ستين عامـــاً من انتهاء الحرب، كانت الحوائط المشبعة بالفوسفور تشع ضوءاً. وبيطء، وشيئاً فشيئاً بدأت تفقد قدرتها على الإشعاع.

التمـــثالان الصينيان من عصر البيدرماير اللذان أنقذهما أبى وأخـــتى من البيت المحترق، أصابهما ضرر خفيف. أحدهما على

شـــكل راعـــية غنم تمسك بسلة ورد فى ذراعها أصبح بدون يد. والآخر يصوّر مشهداً صغيراً: امرأتين فى ملابس عصر البيدماير تجلســـان وتتصـــتان إلى رجل، يقف أمامهما ويقرأ لهما شيئاً ما، الكـــتاب الذى يفترض أن يُمسك به الرجل فى يده اليسرى مفقود، يـــده اليمـــنى كانت تمسك بعصاً يرفعها فى الهواء. الكتاب كُسر، حـــتى أصـــابع الـــيد اليمنى كانت مفقودة. بعد الحرب اتخذ هذان التمـــثالان من ضحايا الحرب موقعهما فوق مكتبة الكتب، شاهدين على ما فقده الأبوان أثناء الحرب.

علـــى العكس من ذلك كانت كرات تزيين شجرة عيد الميلاد بـــدون أىّ خدش واحد، وهو ما كان يحكى على أنه شىء غريب. كانت تلك الكرات قد حملتها أختى من وسط البيت المحترق الذى بدأ آنذاك يتساقط من حولها.

الغريـــب فعـــلاً كان الطريقة التى حوّل فيها الحكى المتكرر للأحداث كلاً من الصدمة والفزع إلى شىء ملموس محدد. الغريب أيضـــا أن الـــتجربة التى عاشها الناس قد أخذت تفقد بريقها أثناء تصـــويرها فى أشكال لغوية، ببطء ومع الوقت. *هامبورج تحولت إلـــى حطام ورماد. المدينة غارقة فى بحر من اللهب. عاصفة من النار.*

فى خريف عام ١٩٤٣ تم ترحيلنا أنا وأمى إلى بعض أقاربنا فى كويورج.

أخـــى كـــان قـــد تعلّم كيف يصنع الفراء. تقول أمى أنه كان يتمنى لو امتهن هذه المهنة. حتى يومياته تؤكد ذلك. تحتوى بعض الصـــفحات مـــنها على عدد من الرسومات – الساذجة إلى درجة تمـــس شـــغاف القلب – التى تصوّر نماذج لديكور الفتارين لأحد محلات الفراء.

كـــان هذا هو المدهش، أنه كان يرغب بحق فى هذه المهنة. علـــى عكسى أنا، رغم أننى تعلمت أيضاً هذه المهنة وقطعت فيها مرحلة لا بأس بها، إلا أننى كنت دائماً أفكر فى أننى سأفعل شيئاً آخر، أكتب، أقرأ. نعم، كنت قد بدأت فى ذلك الوقت إدمان القراءة والكـــتابة – ولم أرغب أبدا تحت أىّ مسمىّ أن أتّخذ من صناعة معاطف الفراء مهنة. كانت تلك المهنة تثير الملل بالنسبة لى، رغم أننى قد تعلمت عنها كل شىء، كيف أحيك معطفاً من جميع أنواع الفراء، كيف أصمم موديلات مختلفة وكيف أضع باترونا. تعلمت جـــيداً، حـــتى أ نى فـــى نهاية تعلّم هذه المهنة اجتزتُ امتحانها بامتياز. أبى أيضا كان يكره هذه التجارة. كانت شيئا كريهاً ولكنه ضـــرورى. ولكنه كان تاجراً مستقلاً، والاستقلال بالنسبة له شىء ضـــرورى. كانت تلك المشاعر تمثّل بقايا إحساسه بالسيادة. كان يكـــره المهنة أيضاً، التى لم يكن يجيدها تماماً. امتهنها بالصدفة. كان قد وجد بين حطام أحد المنازل ماكينة لخياطة معاطف الفراء. ولكن لم يكن العثور على هذه الماكينة مجرد صدفة، فالمهنة التى كـــان يمتهـــنها قبل الحرب، العمل فى تحنيط الحيوانات، ساهمت بـــالقطع فى توجيه اهتمامه إلى تلك الماكينة. كان ذلك فى الوقت الـــذى أضـــحى فيه الكثير من الأشياء بدون وطن، مفقودة وسط

الحطام بعد أن انتُزعت من سياقها المحدد.

فـــى البـــيوت المحطمـــة كنـــت تجد مواسير من النحاس أو الصـــلب، أنواعاً من المعادن يمكن أن تُباع بسعر جيد لدى بائعى الأشـــياء القديمـــة، كنـــت تجـــد أيضاً حلل الطبخ، مواقد الطبخ وماكيـــنات الخـــياطة والمدفأة والدكك الخشبية وأدوات النجارة أو الحدادة. وفى الشوارع، الشوارع التى مرّ فيها الجنود الألمان أثناء انســـحابهم، كنـــت تجد كلّ المركبات الحربية المدحورة، وعربات الـــنقل الحربـــية والمطابخ الحربية المتنقلة وعربات نقل القذائف وعـــربات نقـــل الجـــنود التى هجرها جنودها، وقد انتُزعت منها الأجزاءُ التى مازالت سليمةً. كل ذلك كان قد وَجَدَ مكانه فى تجارة المقايضـــة، تلك التجارة التى كان السعر يتغير فيها من يوم لآخر، مقايضـــة كانت ترتكز تماماً على العرض والطلب، ولكنها فى كل الأحوال كانت ترتكز على قيمة السجائر الأمريكية التقريبية.

ما الذى كان يريده أبى؟

كانـــت هناك تلك الأمنيات وتلك الأشياء المكروهة أيضاً التى لـــم ينطقْ بها أبداً، والتى كان مداها يتّسعُ شيئاً فشيئاً، مثل مجال المغناطـــيس، تلـــك الأمنيات والأشياء المكروهة هى التى حددت لتجارتنا الطريق.

مـــا الـــذى كان يريده أبى؟ فى كل الأحوال لم يكن يريد أن يكـــون صانع معاطف فراء، كما لم يكن يريد أن يعمل فى تحنيط الحيوانات.

ماذا كانت أمنيته؟

بعد أن أمضى وقتاً فى كتيبة المتطوعين رحل إلى عدة مدن وأقام فيها. درس علم الحيوانات بالرغم من أنه لم يحصل على شهادة ثانوية. مازال إلى الآن أسأل نفسى كيف استطاع أن يفعل ذلك، أم كان ذلك فقط حكياً من وحى خياله، قصة حياة اخترعها؟ عاش بعض الوقت فى شتوتجارت حيث عانى من الجوع وظل أسابيع طوالاً يقتات من ورق الكارتون، حتى انهار. قصت هذا أخته جريته التى ذهبت ذات مرة لزيارته فى شتوتجارت. كان قريباً من تنظيم كونسول بل أنه كان أيضاً عضواً به. هذا ما تفترضه أخته جريته.

خَوَنَةُ شهر نوفمبر، طعنة من الخلف. العصر الذهبى للتنظيم.

منظمة كونسول كانت المؤسسة السرية للمتطوّعين فى الجيش. كانت مسئولة عن مقتل من كانوا يسمون بخونة الوطن فى راتناو وارتسبرجر.

ذات يوم أتى لزيارته رفيق كان يخدم معه أثناء الحرب العالمية الأولى، تحدث معه على غير عادته فى حجرة على انفراد. رجل طويل القامة ونحيف، وجهه طويل به ندبة زرقاء مائلة إلى الحمرة وتمتد من فوق أنفه وحتى جبهته. الحاجب الذى اخترقته الندبة نما شعره بشكل عشوائى. كان قائد كتيبة الخيّالة، هكذا عرّفه أبى بدون أن يذكر اسمه.حتى أمى لم تكن تعرف شيئاً عن هذا الرجل.

فى عام ١٩٢١ حاول أبى مع أحد الجنرالات من عصر قياصرة روسيا الذين هاجروا إلى ألمانيا أن يؤسس مصنعاً للعب

الأطفال. جعلا العاطلين عن العمل ومعوقى الحرب يصنعون لهما أحصنة من الخشب. فكّر أبى فى جمل يسوّق بها بضاعته، اخترع جملاً لم يبق منها فى ذاكرتى إلا واحدة: *من أجل الصغار الحلوين حتى لا يناموا باكين.*

فى ذلك الوقت تعرّف أبى إلى أمى، كانت ابنة أحد صانعى القبعات. كان يملك مصنعاً مزدهراً، وأيضاً محلاً لبيع القبعات كما يملك فيللا فى شارع تورنيك فى هامبورج ايمسبوتل.

لم يكن حباً من أول نظرة، كما تقول هى، ولكنه كان حباً أتى سريعاً، بعد أن تقابلا عدة مرات. أسبوع أو أسبوعان بين كل لقاء وآخر. أعجبها هذا الرجل الطويل الرشيق القوام، بسترته العسكرية، التى كان يرتديها بدون أىّ علامة أو شعار. كان يرتديها أيضا فى بعض الصور. كان يمكن أن يلعب دور أحد أمراء روسيا. له صورة فى حفل تنكرى وقد ارتدى زىّ الفرسان. كان فى أغلب الصور يمسك بسيجارة فى يده، وفى بعض الأحيان يضعها فى جانب فمه، مثل الممثلين فى أفيشات الأفلام القديمة، وابتسامة مسترخية صغيرة على وجهه، ويداه فى جيبى سترته. لم يكن فى العادة يرتدى سوى تلك السترة العسكرية، ويحشو تحتها فى الشتاء "بلوفر" رمادى اللون.. كان مُعدماً ولكن يفهم فى الأصول. طلب يد ابنة صاحب مصنع القبعات، والأخير كان يتمنى لابنته زوجاً ميسور الحال، ولكنه فى النهاية وافق على زواجه منها. وبعد ذلك بقليل أعلن هذا الرجل الشاب صاحب مصنع لعب الأطفال الصغير إفلاسه،. وهرب جنرال روسيا القيصرية من دائنيه إلى باريس، أما الرجل الشاب فقد دفع حماه

عنه ديونه.

قالت أمى، كان هذا هو الرجل الذى تمنيته، الرجل الوحيد.

لـــم تكـــن غافلـــة عن الفرق بين ما كان يصوره عن نفسه وحقيقـــته الفعلية. ولكنه كان يصرف دائماً من قروض البنك ولم يكـــن لديـــه أصـــول تغطيه، وفى معظم الأحوال كان يعجز عن تسديدها بالكامل. لو كان أكمل دراسته، لو كان درس فى الجامعة، لكـــان قـــد أصبح محامياً، فهو ذكى و صاحب حجة، ولو أصبح مهندساً معمارياً، لأمكنه أن يكون بارعاً بالتأكيد، فقد كان موهوباً فـــى الرسم، يملك تصوّراً دقيقاً عن الأماكن والفراغات. لو حدث ذلـــك لتحققت له مكانة برجوازية قوية، ولكنه كان يبدو لى دائما أكـــبر من حجمه، بينما كان عليه أن يمتهن مهنة يحتقرها سراً فى قرارة نفسه.

أمى كانت ترى نقطة الضعف تلك فى أبى وكانت تحاول أن تعوّضَها بدون أن تجعله يفقد ماء وجهه أمام الناس، لم يحدث أبداً أن صـــدرت عنها أية حركة تُضمر احتقاراً، لم تلو أبداً فمها، أو تـــرفع حاجبها. لم يحدث أبداً أن تحدثت عنه باحتقار، حتى عندما كنـــت أشـــكو منه أمامها. فقد كان هناك وقت، لم أكن أستطيع أن أتـــبادل الحديـــث معه بدون أن أفقد أعصابى، كان ذلك قبل وفاته بقليل.

ظلـــت تسانده بقوة طوال الوقت. كانت تقول غالباً، زوجى، فقط هكذا، زوجى، ولى أنا كانت تقول بابا.

الـــزواج كـــان يعنى بالنسبة لها أمراً نهائياً، وميثاقاً، ارتباطاً

حدث مرة ولا يمكن أبداً فكُّهُ.

لـــم يحـــدث أبداً أن تشاجرا أمامى. رغم وجود أسباب كثيرة للشـــجار، إذ أن أمى التى كانت تملك حساً تفهم به قدراته الفعلية، وتفهـــم بـــه الواقـــع، والتى لم تكن تهتم كثيراً بالمظاهر، لم تترك نفسَها للمظاهر لتعميها، ولكنها كانت متواضعة وتدرك بالتأكيد أنه كان يعيش حياة لا يقدر على مصاريفها.

كانت هناك بعض المناقشات. قالت له رأيها، بهدوء وبحسم. ولكـــنهما لـــم يتشاجرا أبداً أمامى. كل ما أتذكره هو أنها قالت له ذات مـــرة جملة محذرة: *لا يمكن أن تفعل هذا يا هانس، لا يمكن أبداً.*

لـــم أكن أتصور أبداً أن ينفصلا، فى الوقت الذى يضم فصلى بالمدرســـة ثلاثـــة أو أربعة نماذج لتلاميذ انفصل آباؤهم أو كانوا علـــى أقـــل تقديـــر يعيشون منفصلين. كان أبواى ينتمى كلاهما للآخـــر. هذا أكيد. حتى بعد موته، قالت هى، وكانت تبلغ السادسة والخمســـين مـــن العمر، كان هذا هو الرجل، الرجل الوحيد الذى كنت أتمنى والذى حصلت عليه. حتى إذا بذلت أقصى جهدى لأن أتذكـــر، لا يمكن أن أتذكر أبداً أى نقاش عنيف يعلو فيه الصوت. لا أتذكـــر أن رأيـــت تكشيرة، أو سمعت أية سلاطة لسان، لا منه ولا مـــنها. فتقسيم الأدوار بينهما كان واضحاً جداً. كان هو يحدد المصـــالح الاقتصادية، *اتجاه السير*. وهى كانت تنظم البيت، كانت أيضـــاً فى المحل، تنصح الزبائن من النساء أثناء الشراء، وكانت

تســاعد هنا وهناك فى الورشة، تبطن المعاطف وتهتم بالطفل، أى تهتم بى، *الطفل الذى جاء متأخراً، الصغير*.

كلمة مساواة لم تكن تعنى بالنسبة لها أىّ شىء. ما الذى علىّ أن أتحرّر منه؟ هكذا قالت لإحدى السيدات اللائى شاركن فى عام ١٩٦٩ فــى إنشــاء مؤسسة لنصح النساء وجاءت تلك السيدة إلى محلنا لرتق معطفها الفراء. حكت لى أمى فيما بعد أن معطف تلك الســيدة كــان قــذراً بدرجة كبيرة وكانت تريد إلى جانب ذلك أن تفاصل فى سعر الرتق. قالت أمى آنذاك: لا يمكن أن يعيش المرء علــى الكلمات المعسولة. وقالت أيضاً: أنا أعمل وأريد أن أحصل علــى أجر من هذا العمل. هذا هو كل شىء. ثم فتحت لها الباب. كانت تبدو لى عندما تكون عصبية أكبر من سنها الحقيقية.

السياسة كانت لا تعنى لها شيئاً، أهم شيء: أن تعيش وعائلتها فــى ســلام. لا يمكــن أبــداً أن تقوم حرب أخرى. كانت تذهب لتنتخــب، ولكــنها كانــت تقول دائماً: أنهم فى النهاية يفعلون ما يريدونه. كانت تنتخب الأحزاب اليسارية، فى الأغلب لإرضائى. أما *اليمينيون، هذه الشلة المتعفنة*، فقد نالت منهم ما يكفى.

كانــت تذهب إلى الأوبرا، إلى المسرح أو المتحف وتقرأ ما أنصــحها بقراءته. ولكن ما كانت تسمعه، تقرؤه وتشاهده لم يكن يغيّرها. كانت تقوم بكل ذلك، لأنه جميل أن تذهب إلى الأوبرا أو المسرح، إذ أن هذا كان يعنى أن يرتدى المرء أحسن ثيابه ويسمح لنفســه أثناء الاستراحة أن يشرب كوباً من الكحول، ويستطيع أن يحكــى فى الأيام التالية عن تلك الأمسية. لم تكن مثقفة.إذا ما أتينا

ذات يوم لزيارتها، أثناء عيد ميلاد المسيح أو فى عيد ميلادها كنا نـــندفع كلنا، أنا وداجمار والأطفال إلى مجلات التسلية التى كانت تحتفظ بها.

كانـــت ماهـــرةً فى أن تتعامل مع الواقع. استطاعت مثلاً أن تـــتأقلم مـــع الظـــروف الفقيرة بعد الحرب، لم تصرف ببذخ حتى عـــندما *كانت التجارة رائجة*. وأمنياتها؟ كانت كل أمنياتها تتركز على الصبي، علىّ أنا. لابد أن يعيش الولد مرتاحاً. وهى؟ لم تكن تحمـــلُ همًّـــاً بالنسبة للنقود. لم تكن تقوم برحلات. أهمُّ شيء أن يســـتمر العمـــل بالمحل بشكل جيد. كانت يداها تؤلمانها وعيناها أيضـــاً. لـــم تكن تشكو، ولكننى كنت أستطيع أن ألاحظ هذا عليها عـــندما كانت تمسح عينيها بالقطن المغموس فى شاى الكاموميل. كانـــت تشكو من الكاتراكت فى عينيها وتخشى أن تعجز يوماً ما عن الخياطة، أن تفقد القدرة على الرؤية.

فى عامها الثانى والثمانين توقفت عن العمل فى المحل. ظلّت حـــتى ذلـــك الوقـــت تعمـــل، كانت تقوم كل يوم بعمل ما، تقوم بالحســـابات وتبيع، وتقوم بالبروفات للزبائن، وتبطن المعاطف. لم تـــتعلم تلك المهنة قبل ذلك، ولكنها تعلمتها من كثرة ما مارستها، هى، من تربت بشكل مختلف، كان يمكن أن تأتى لها الحياة بأشياء مختلفة. ابنة بيت طيب وغنى، ولكنها رضيت بقدرها.

فى السنوات الأخيرة بدأت تدير المحل مع أختى وكان العمل لا يســـير بشكل جيد، لدرجة أنها كانت تسحب من مدخراتها، فى تلك السنوات عندما كنت أزورها كانت تجلس فى الورشة المضيئة خلف المنضدة تبطن أحد معاطف الفراء. تلك كانت إحدى الصور

التى احتفظت بها ذاكرتى لها، وهى تجلس هناك وتحيك. أمام النافذة كانت شجرة بتولا، تصطك فروعها الخضراء بالنافذة فى كل مرة يتحرك فيها الهواء.

بعد الظهر كانت أختى تذهب لشراء كعكة كوبنهاجن أو كعكة زبد. بينما كانت أمى تغلى الماء وتجهز المائدة فتضع عليها الأطباق والفناجين. ثم كانتا تجلسان هناك تشربان القهوة وتحاولان *الاستمتاع بوقتهما*. فى المساء كانتا تعودان إلى المنزل وتحكيان لبعضهما عن الرحلات التى ترغبان فى القيام بها. ثم بدأت أمى بالفعل فى القيام بالرحلات، وهى من لم تخرج أبداً حتى عامها الستين من ألمانيا، قامت برحلة بالحافلة إلى فرنسا وإيطاليا وإنجلترا ثم إلى روسيا. الصور كانت تكتب عليها وتلصقها بعد عودتها فى الألبوم. أثناء تلك الرحلات كانت تكتب الكروت لأصدقائها وأقاربها ولى أنا أيضاً. وعندما عادت إلى المنزل، كانت تكتب الخطابات، تقريباً كل يوم. كان يحضرنى دائماً التصوُّر أننى، إذا ما حدث ذات يوم وفقدت القدرة على التركيز وبالتالى على العمل، سأقرأ تلك الخطابات، مئات الخطابات، وسأشعر عندئذ بالتأكيد أن هناك من واسانى.

كان عمرها ٣٨ عاماً عندما أنجبتنى، *قطعة لحم كبيرة*، هكذا كانت تقول عنى، كنت أزن ٥١٧٤ جراماً. كانت هى قليلة الحجم، قصيرة القامة، طولها ١٦١ سم. امرأة تأخرت فى الإنجاب، فى ذلك الوقت لم يكن أمراً غير عادى. حكت أنها كانت تشعر أحياناً بالخجل عندما بدأ الناس يلاحظون عليها الحمل. ولكنها لم تفكر

أبداً فى إنزال حملها ولا حتى أبى.

الطفل، الأول، ولد عام ١٩٢٢، كانت ولادته فى المنزل، ولم يكن المولود الصبى المنتظر، ولكنه كان بنتاً. لابد أن أبى لم يستطع أن يخفى إحباطه. كان يتمنى أن ينجب أولاداً، أو لاداً يصححون مسار حياته. الصبيان كانوا يعدون بالأمان، على المستوى المالى أيضاً. كان جده فلاحاً فى لانجنهورن. تمفيج كان اسمه. باع الأرض لشركات البناء وأنفق معظم النقود التى حصل عليها، الشراب والنساء، مثل أبيه أيضاً الذى اختفى ذات يوم مع إنسانة ما. هذا ما كان عليه جدى الذى دمرت كل صوره.. لم يتحدث أحد أبداً عنه، كان لابد أن ينسى، أن يعاقب بألا يتذكره أحد، ألا يذكره أحد.

حكت أمى أن أبى كان يتمنى صبياً بشدة، لم يستطع أن يتعامل أبداً مع *البنت*. على عكس الصبى الذى ولد بعد ذلك بعامين، كارل هاينس.بالفعل لم تكن له أية صورة مع أختى توضح أنه كان يحب أن يقترب منها، لا صورة له معها فوق ذراعه، أو وهو ممسك بيدها أو هى على حجره. فيما بعد عندما رقدت أختى فى المستشفى، وكانت تتكلم بصعوبة، قالت: والدنا – فهى كانت دائما تقول لى عنه والدنا وعن أمى والدتنا، وهو ما كان يجمعني معها فى سياق واحد لا يعتمد فقط على اللغة– *والدنا، كان دائماً يرفض وجودى. على عكس كارل هاينس، فهو كان كله أبى.* أختى كانت إلى جانبه مجرّد ظل. لم يكن أحد يهتم

كثـيراً برغباتها، حتى أمى، التى كانت فى العادة متعاطفة معها. كانـت أختـى تشبه أمى كثيراً، ولكن كانت ألوان شعرها وعينيها "أغمق" عندما كانت طفلة، كان شعرها أقرب إلى السواد، وعيناها "بنى داكن".

تـبدو مـثل طفلة غجرية، قال هذا أحد الجيران عندما كانت صـغيرة. استنكرت أمى هذا الكلام ولم تعد تحيّى هذا الجار بعد ذلك أبداً.

والمولـود فى سن متأخرة؟ شعره أشقر داكن. له قوام والده نفسـه، يشـبهه أيضاً فى شكل رأسه، فى الطريقة التى ينمو فيها شـعره عند جبهته، فى خصلات الشعر غير المتساوية، فى شكل يديه، ولكن له عينا أمه، بنية اللون، أنا.

هانـا لـوره، اسم يكتب بأحرف كبيرة وفى مقطعين. هذا ما صـممت عليه، كأن تلك الطريقة الخاصة فى كتابة اسمها تصدق على تفردها. لم تستطع تعلُّمَ أن تكون حاسمة ومصممة حتى تحقق أمنـياتها. بعد المدرسة تدرَّبت أختى على وظيفة فندقية صغيرة، ودخلـت الخدمـة العامـة، وكادت آنذاك أن تغرق. إحدى قادتها دفعـتها بعنف فى المنطقة عميقة المياه فى حمام السباحة، طريقة كـان يفترض أنها تعلم السباحة عن طريق الصدمة، وكان الوقت آنـذاك وقـت حـرب. صرخت، ابتلعت الماء، غطست فى الماء وصـعدت مرة أخرى ثم غاصت فوق أرضية حمام السباحة. ثم أنقذها أحد الغطاسين.

قالت، أنا واحدة من هؤلاء الذين لا حظ لهم فى الحياة. لم تعد

وتزيد فى ذلك، قالت تلك العبارة فى صورة مقتضبة جداً، *لا حظ لهم فى الحياة*. سقط أول خطيب لها قتيلاً فى روسيا فى قوات المشاة، ثم تعرفت إلى رجل آخر، خطبت له، ثم أسر هذا الرجل فى عام ١٩٤٤ فى روسيا. انتظرته حتى عام ١٩٥١ سبع سنوات طوال، ثم أتى الخبر أن خطيبها قد مات فى معسكر الأسرى بروسيا. وقعت فى حب رجل كان يشبه أبى كثيراً، طويل القامة، أشقر الشعر وجميل الهيئة، كان يستأجر محلاً لبيع المجوهرات، وكانت هى طبعاً أفضل زبائنه.، حتى ذلك اليوم الذى قذف به أبى خارج المنزل. كانت تقابله سراً وتهدى أقاربنا دائماً أدوات مائدة من الفضة، شوكاً وملاعق وسكاكين، وكانت تلف تلك الأدوات بشريط، وذلك حتى لا تتقطع صداقتها معه. عرف أبى أن لذلك الرجل خطيبتين أخريين. لم يؤثر هذا فيها، تركت الرجل يقنعها بحكايته، كان عبقرياً فى البيع، ووضح لها لماذا لم يفك ارتباطه بتلك الفتاتين حتى اليوم.

كان أبى يقول عنها، كل هذا الغباء.

ولكنها لم تكن غبية، كانت فقط تحب حباً أعمى. لم تكن تريد أن ترى، ولكن تريد أن تشعر فقط، تشعر بنفسها، تريد أن تشعر أن هناك من يهتم بها، تشعر بالحنان، بأنّ هناك شخصاً يأخذها مأخذ الجد، حتى لو كان لذلك الرجل نوايا أخرى، نوايا لها علاقة بتجارته مثلاً، ببيع الحلى وأدوات المائدة من الفضة. كانت تلك القصة واحدة من القصص الجيّاشة بالمشاعر التى نصادفها يومياً، ولكنها أيضاً نوعاً من التمرد والثورة والاعتراض، قصة حب تابعها الطفل بدهشة، قصة دارت بشكل أكثر عنفاً ودراماتيكية

وتطـــرفاً مـــن أية قصة أخرى يمكن أن تقع اليوم ، لأن *هذا الذى يصـــح ولا يصـــح* كان فى ذلك الوقت محكوماً بالمجتمع وملزماً. كان لا يمكن أبداً أن تجرى فتاة وراء رجل.

ما فعلته أختى كان فضيحة، خاصة أن محل بيع المجوهرات كـــان فـــى الحى نفسه، شارع واحد يفصل بين بيتنا والمحل. كان ذلك محرجاً بالنسبة لأبى. الابنة كانت تمشى مع رجل يعرف عنه الجميع أنّ له امرأتين أخريين.

فـــى الـــنهاية، مـــنعها أبى، هى التى كانت آنذاك فى الثانية والثلاثين، أن تكون لها أية صلة بذلك الرجل. المشاهد التى كانت تجمع بين أبى وأختى كانت عبارة عن صياح، بكاء، نهنهة وصفق باب وزمجرة.

خرجـــت مـــن المنزل لتعمل مربية أطفال ومديرة منزل أحد الأطباء. بعد سنتين عادت مرة أخرى. كان الجواهرجى قد تزوّج فـــى تلـــك الأثـــناء امرأة ثالثة، ابنة صاحب أحد مصانع معلبات الأسماك.

عـــادت أخـــتى إلى البيت وعملت فى حياكة معاطف الفراء تعلمت المهنة فى محل أبى. بعد موت أبى تعرفت إلى أحد اليهود الإيرانييـــن، تعمـــل عائلـــته فى تجارة السجاد. رجل لطيف، ظل ســـنوات طوالاً يحاول خطب ودها، ولكنها كانت ترفض الزواج منه، كانت تستلطفه، ولكن بطريقة تجعل دائماً بينها وبينه مسافة. كانت تذهب معه إلى السينما وأحياناً إلى الأوبرا. وفى أيام الآحاد عـــندما يكـــون الجو صحواً، كانت تخرج معه إلى وسط المدينة، يتـــناولان الغداء ويتنزهان، يذهبان إلى أحد المقاهى وفى العصر

يعود بها مرة أخرى إلى البيت، وهكذا مرّت السنون.

فـــى أعـــياد مـــيلادها كان يهديها قطعاً ذهبية مرسوماً عليها صـــورة شـــاه إيـــران، قطعـــاً صغيرةً وكبيرةً، كان يهديها أيضاً مطرزات شرقية وأطباقاً وأكواباً نحاسية. كانت أمى ترى كل تلك الأشياء قبيحة للغاية. كان يدعى افرايم، وكان يعامل كلاً من أمى وأختى باحترام عفا عليه الزمن، بل بنوع من الخشية.

ذهبـــت أختى ذات يوم معه إلى إحدى الاحتفالات فى المعبد اليهودى وزارت مرة أخرى عائلته.

وسألتها لمَ لا تريد أن تعيش مع هذا الرجل؟ فأجابتنى: أنه لا يعجبها لدرجة أن تعيش معه.

وذات يـــوم من أيام شهر نوفمبر تفتح أختي صباحاً الجريدة وتقـــرأ عن العاصفة التى أصابت هامبورج ليلاً وعن الفيضانات والحـــوادث فـــى الشـــوارع بســـبب العاصفة. في شارع أوستر اصـــطدمت ســـيارة بقـــيادة حكمت هـــ (٥٠ عاماً) من نيويورك بســـيارة تاكسى يقودها ديتليف ل (٣٠ عاماً) من نوردشتيت. وقد أصيب الراكب بجانب الشخص الأمريكى ويدعى إبراهيم هـــ من ايمســـبوتل ويـــبلغ اثنين وستين عاماً، ثم توفى فى مكان الحادث متأثراً بجراحه.

تلك الصفحة من الجريدة احتفظتْ بها أختى فى حقيبة صغيرة تحـــتفظ فـــيها بكـــل وثائقها الخاصة، مثل الخطابات، دعوة لحفل خطوبـــة، نعـــى وبعـــض الصور ومن بين تلك الصور مجموعة لخطبائها الذين لم أتعرف إلى واحد منهم أبداً.

قالـــت أن الحـــياة كان يمكن أن تسير بشكل مختلف. إلا أنها أدركت مبكراً بالفعل عدم جدوى تصحيح أىّ مسار لحياتها. هكذا عاشـــت أختى حتى مرضت ثم أجريت لها عملية جراحية. كانت تـــبلغ آنـــذاك الثامنة والستين. أجريت لها العملية لتوصيل أنبوب لإخراج البراز. بعد العملية مباشرة كانت تشعر بالخجل والخوف، لـــم تكن تريد أن تسافر إلى أى مكان. ثم بعد مرور بضعة أشهر جاءت إلى زيارتنا. وأثناء جلوسنا إلى المائدة نتناول الطعام، كانت تضـــطر لإخـــراج ريح بصوت مسموع، إلا أنها كانت تسخر من ذلك أمام الأطفال بإطلاق الفكاهات، فكانت تقول، لا لا لا، هذا لا يصـــح أبداً. إذن فلن أسافر إلا فى صحبة هذين الأنبوبين. وإذا ما خرجت من الحمام كانت تمسك بيدها كيساً صغيراً ملفوفاً بالورق لتلقيه فى القمامة وهى متحرجة قليلاً.

ذات مرة، عندما كنّا وحدنا، بكت وقالت أنه شىء فظيع.

ســـافرت مـــن برلين إلى هامبورج. جلست فى عربة الطعام أنظـــر مـــن النافذة إلى تلك المناظر المألوفة، المروج، الأغصان المكسورة، غابات الأشجار الصغيرة، طيور أبى قردان الواقفة فى مســـتنقعات المروج. أشجار البلوط الوحيدة المتناثرة هنا وهناك، أبقار مبرقشة باللونين، الأبيض والأسود، بيوت من أحجار القرميد المحـــروقة، غابة منطقة زاكسن، ثم ظهور أول البيوت عند الغابة المبنية من طابق واحد وحدائقها التى تحوى أشجار الأرز الزرقاء وأحـــبال الغســـيل، ثـــم محطـــة القطار. ركبت سيارة عامة حتى

أيمســبوتل، لأذهب إلى إليم، المستشفى الذى ولدت أنا به ثم ماتت أمى فيه.

إليم، واحة للراحة.

وجدتهــا فى العنبر نفسه ذى الستة أسرّة الذى رقدت به أمى مــن قــبل. الــنوافذ كانت مفتوحةً، والستائر كانت تتحرك بهدوء شديد. كان يوماً من أيام الصيف الحارة حرارة غير طبيعية.

إلــى جانــب فراش أختى كان ترولى من الحديد به محاليل. إبــرة أنبوب المحاليل كانت مثبتة فى ثنية ذراع أختى التى تحول لونهــا إلــى الزرقة. كانت قد ازدادت نحافة. وتهدل اللحم حول ذراعــيها. شعرها الذى كانت تصبغه بلون أشقر فاتح كان مهوّشاً وابيضّــت جــذوره. قميص المستشفى كان مزحزحاً إلى الخلف، فــبرز من تحت فتحته صدرها المسطح الذى انبسط على قفصها الصــدرى. فمهــا تدلّى مفتوحا بشكل يوحى بالشيخوخة. فيما بعد رأيــت طاقم أسنانها الصناعى فى درج المنضدة الصغيرة بجانب الفراش.

قــبل أن أذهب إليها فى المستشفى ذهبت إلى شقتها. كانت قد قامت بتنظيف وترتيب كل شىء. فصلت الثلاجة. وفاتورة لم تدفع بعد كانت فوق المائدة بالردهة. كانت قد أعدت لى سريراً وفرشته بملاءات نظيفة، فرشته بالطريقة نفسها التى كانت أمى تفرشه بها فــيما مضــى. هذا الفراش الصغير الذى كنت أنام فيه وأنا أضم ساقىّ.

الفاتورة؟

دفعتها.

كانت متوترة، ويدها تتحرك كثيراً فوق ملاءة السرير.

فى البيت كل شىء تمام، اطمئنى.

ولكـــنها كانت تريد أن تتكلم، أن تحكى، عن نفسها، عن أبى، عنّى أنا أيضاً.

كـــيف كنـــت وأنـــا طفل؟ طالما ظلّ ذلك السؤال يُطرح ولا يجيب عليه أحد، يظل المرء طفلاً.

كنت مختلفاً.

كـــيف؟ مختلف؟ مختلف فقط. كيف؟ فكرت وبعد فترة قالت: أنت رأيت أسوداً فى الأدغال. ثم أخذت تضرب بعصا هنا وهناك. ضـــحك الجميع. إلا أبى، فقد أخذ يبحث معك عن الأسود. أخذت تفكـــر، وكان واضحاً أنها تعبة، ليس فقط من الكلام، ولكن أيضاً من التفكير، من التذكر. قالت، أبونا كان دائماً عطوفاً. كان يمكن أن يمنع إجراء هذه الجراحة البشعة لى.

قلت، ولكنها ضرورية.

لم يكن ليسمح بهذا، كان سيهتم بى.

كانت تريد أن ترى الموقف هكذا، وقلت أنا، نعم وربما.

كـــارل هايـــنس، الذى كان متعلقاً بأبى بشدة، كان *ولداً* بحق. فخـــور أنا *بهذا الولد*. كان أخى غالباً خوافاً مثلى أنا أيضاً. أفاجئ نفسى أحياناً وأنا أفكّر: الآن، أقفز. وتحت قدمى، الماء تحت قدمىّ بمســـافة كبـــيرة. ولـــم يشرح لى أحد كيف أقفز فى الماء، القفز بالـــرأس أولاً، ولكـــنّ الرأسَ مرفوع وليس مدلىً إلى أسفل، أرم بنفسك من فوق خشبة القفز ولا تترك نفسك للسقوط. ذات يوم من

الأيـــام المطـــيرة، عـــندما كان حمام السباحة العمومى شبه خال، توجهت إلى هناك بدون أن أقول لأحد شيئاً، وصعدت فوق خشبة القفز ذات الخمسة أمتار وقفزت منها. ماتزال الخشبة ذات العشرة أمـــتار تنتظر أن أقفز منها. شعور مثل أمر: *كن شجاعاً*. يقال أن أخـــى كـــان شجاعاً لا متهوراً. كان يؤكد وهو راقد فى مستشفى الجبهة، مبتور الساقين ويكتب بخط جعله المورفين مشوّشاً، أنه لم يكـــن مـــتهوّراً. حتى فى تلك اللحظة، وقد أصبح معاقاً، ويعرف جيداً أنّ حياته قد تشوهت منذ تلك اللحظة إلى الأبد، وأن شبابه لن يكـــون شباباً أبداً بعد ذلك، حتى فى تلك اللحظة كان شجاعاً، "ولد شاطر".

مـــع خطاب كتبه إلى أمى، كتب خطاباً آخرَ لى، كانت سنى آنذاك ثلاث سنوات.

٤٣/٧/٢٢

أوفا العزيز

كتبت لى ماما تقول أنك تريد أن تقتل بالرصاص كلَّ الروس ثـــم نفرُّ أنا وأنت من الجيش. ولكن يا صغيرى، هذا لا يمكن، لا يمكـــن أن يقـــوم الجمـــيع بذلك العمل. أتمنّى أن أعود قريباً إلى المنزل وألعب مع أوفا.

ننـــتظر الآن أن يـــتم نقلـــنا، سنذهب إلى منطقة أخرى على الجبهة الشرقية.

مـــاذا تفعـــل أنـــت طـــوال هذا الوقت، تأكل التوت؟ بالهناء والشفاء.

كـيف يمكـن أن يفكر طفل فى الثالثة من عمره أن يقتل كل الـروس بالرصـاص؟ كان الحديث عن القتل حديثاً طبيعياً وأمراً منتهياً. ولكن قد يكون ذلك الخطاب أيضاً تعبيراً عن رغبة الأم أن يفـرَّ ابـنُها من الجيش، ولكن بسبب الرقابة التى كانت مفروضة على الخطابات فى ذلك الوقت، فقد ظهرت تلك الرغبة على لسان طفل فى الثالثة. فهذا طبعاً غير مفهوم، فإذا قتلنا كل الروس، فلن نحتاج أن نفرَّ من الجيش.

مـروج لونوبورج. أرض الموتى. شلسفيج هولشتاين. بحيرة زيجـبرج. عصر يوم أحد. نزهة حول البحيرة. أبى يرتدى القبعة ومعطفـاً صـيفياً خفيفاً، وفى يده قفاز من الجلد، أمى فى تايير، ومعطـف فاتح بلون التراب وقفاز من الشبك، الطفل فى بنطلون فـاتح اللـون، وجورب يصل حتى الركبة لونه أبيض. هكذا كنا نتـنزّه عـند ضـفة البحـيرة. تجلب هذه النزهات معها الشعور بالعجز، عجز عن التنفس، عن التفكير، عجز عن التذكر. وشىء آخـر، أثناء تلك النزهات كان الحديث غالباً ما يدور عنه، وربما أبـالغ عندما أقول *غالباً*، أبالغ لأن ما كان يحدث فعلاً هو الحديث عـنه بين الحين والآخر، ولكن تخيلتُ أن أبى وأمى يتحدثان عنه كثـيراً لأنـه تحـوَّل إلى مجرد مادة للحديث، خاصة إذا لم يكن موجّهـاً لى، ولكنه كان حديثاً حول وجودى، يتساءل عن الطريقة التى سارت بها حياة الاثنين، أبى وأمى. ما الذى كان سيحدث لو أن..؟ سـؤال لا لـزوم له، سؤال يتوجه إلى السائل نفسه، كيف كانت الأمور ستتغير إذا ما تدخّل العقل؟ رغم أن أمى لم تتهم أبى

أبـداً بأىّ شىء. قيل أنه تطوّع بالفعل بكامل رغبته، لم يقنعه أبى بذلك، ولكنه لم يكن محتاجاً إلى إقناعه. كان ما فعله التنفيذ الأبكم لرغبة الأب أن يعيش فى وئام مع المجتمع. على العكس من ذلك استطعت أنـا أن أجد كلماتى الخاصة بى، كلمات أعترض بها، أسئلة وتكرار فى الأسئلة. كلمات أعبر بها عن حزنى وخوفى أثناء الحكى. الصبيّ كان يحلم *ويغزل*،، يغزل كان يعنى أنه كان يكذب ويختلق قصصاً. الكلمة الألمانية لذلك الفعل تناسب تماماً ما كان يفعله، فهى كلمة مشتقة من ينسج، بالفعل كان الصبىّ ينسج من بعض ما سمعه ورآه، حتى يعطى لنفسه وللأشياء من حوله معنىً خاصاً بها..

الصبىّ الخواف.الصبىّ الشجاع.

خطاب إلى أبى ٤٣/٧/٢٠

منذ الخامس من يوليو وحملتنا المسماة فهد فى قتال حتى اليوم، رغم أن الهجوم المضاد قد توقّف، لابد وأنك قرأت عن نجاح تلك الحملة فى الجرائد. كانت معارك عنيفة، فى بعض المواقع تجد المدرّعات الأمريكية والروسية والإنجليزية وهى ملقاة جنباً إلى جنب، يفصل بينها فقط من ٥٠ إلى ١٠٠ متر. وأحياناً فقط ثلاثة أمتار. كانت لنا الريادة فى سباق التسلح بعرباتنا المدرعة تى ٣٤، حتى سبقتنا المدرعة ٣٤ أو المدرعة فهد. سأقص عليك كل ذلك فيما بعد.

لا تكتب شيئاً لأمى.

أهدى لك سلاماً من رفيقك كارل هاينس.

الطفـــل الشجاع تطوّع بكامل حريته لينضم إلى إحدى الفرق العســـكرية الخاصة. فرقة عسكرية خاصة مختلفة تماماً عن تلك التى حارب معها الأب فى قوات المتطوعين، فتلك التى انضمّ لها الأخـــير تكوّنـــت مـــن بقايا الإقطاعيين الأرستقراطيين، فكان إذا دخلهـــا شـــخص من العامة كان لا ينضم إليهم فعلياً ولكنهم كانوا يصـــبرون فقـــط على صحبته معهم على مضض. سمبر تاليس، دائمـــاً ممـــيزون، كان ذلك هو شعار قوات المشاة الذى كان أبى يحـــبُّ تـــرديده. ولكن لم تكن حياته هكذا فى الواقع: مميزة. كلمة شرف، وكيف كان يقولها، هذا التصرف ليس تصرفاً شريفاً.

أن تدخـــل قـــوات العاصفة معناه أن جواز مرورك يدلُّ على عـــدم وجـــود يهـــودى واحد بين أجدادك، جذورك آرية خالصة. شجرة العائلة. نبل المنشأ لكل الشعب. هيملر الذى كان يمتلك فى عـــام ١٩٢٨ مـــزرعة لتربـــية الدواجن كان يبحث عن مثل عليا لقوات العاصفة النازية فى العصور الوسطى، تبديل الشعب، كلمة سخيفة.

مؤسسة أوردنسبورج*، المستوطنات فى شرق أوربا، الألعاب الجماعـــية الجرمانـــية، تحويل الشعب كلمة مضحكة فعلاً تحويل الشعب.

كلمة مضحكة ومثيرة للسخرية، ولكنها كلمة فى الحقيقة قاتلة. كـــان يـــتم اختـــيار المنضمين لهذه الفرقة العسكرية على أساس

* مؤسســـة أورندســـبورج: تكوّنت فى عهد النازى من أجل تدريب الجيل الجديد من القادة فى القوات النازية على غرار طائفة قلعة الأوردن التى كانت تدرب الفرسان.

عرقى، الشعب هو الفيصل وليست الطبقة الاجتماعية ، الدم، تماماً مثل النبلاء، ولكن هنا لا يجب أن يكون المختار من ذوى الدم الأزرق وإنما من ذوى الدم الآرى، الدم الألماني، دم الإنسان السيد الذى خُلق ليكون سيداً. الفيلق العسكرى الأسود. الصفوة. وكان لهذا الاختيار نظام بلا ريب، أن يكون كل قادة القوات التى تم إرسالها إلى الجبهة فى الاتحاد السوفيتى من الأكاديميين – المفضلين لدى هيملر – ثمانية منهم كانوا قد أنهوا دراسة الحقوق وأحد أساتذة الجامعة، ثم القائد حامل الراية بلوبل، قائد قوات الكوماندوز الخاصة، ٤أ، والذى كان مسئولاً عن مقتل ستين ألف شخص، هذا القائد نفسه كان مهندساً معمارياً حراً. وقد فوجئ الضباط الأمريكيون الذين استجوبوا هؤلاء الرجال، إذ وجدوهم رجالاً بسطاء لا يميلون للعنف، ولكنهم رجال مثقفون، على دراية بالفلسفة والأدب والموسيقى، رجال سمعوا موتسارت وقرأوا هولدرلين. كنا نتمنى لو كان ذلك غير صحيح. كان لديهم بلا شك وعى بأنهم اقترفوا شيئاً غير عادل ولذلك فعلوا كل شىء من أجل أن يظل ما فعلوه سراً. القتلى الذى قتلوا فى الهاوية العميقة فى بابيجار تم إخراجهم من قبورهم مرة أخرى وقام الأسرى الآخرون تحت حراسة قوات العاصفة بإحراقهم، وذلك عندما تأكدت أنباء أن الجيش الأحمر على أعتاب كييف. وبعد ذلك قُتل هؤلاء الأسرى بالرصاص. وقد تم إدراج بنزين الديزل الذى استخدم فى حرق الجثث فى الحسابات. بيروقراطيو القتل. أوتو أولندورف، درس الاقتصاد وأصبح رئيسا للفرقة د، كان خبيراً بالإحصائيات وعلل قتل تسعين ألف رجل وامرأة وطفل بتشبيه

قرأه فى الإنجيل، فالإسرائيليون أقدموا من قبل على إفناء أعدائهم. الإنســـان السيّد. كانت تلك الأفعال هى جنون العظمة لدى الرجال محدودى الأفق، الذين بيّنوا للمهزومين أنه من الأفضل أن تحرس اثنى عشر شخصاً من *حثالة البشر* وهم يؤكدون على ضرورة أن تعمـــل بنفسك. كان ذلك هو أساس أيديولوجية السادة. الأسطورة عـــن الدم ونقائه والأصل الألمانى كانت تكفى حتى تنتمى للشعب السيد، بغض النظر عمّا إذا كنت كسولاً أو مجتهداً، غبياً أم ذكياً. تماماً مثل النبيل الذى قابله أبى فى بحر البلطيق، والذى كان يهتم فقط بنقاء شجرة العائلة، ولكن الحديث هنا عن نقاء شجرة الشعب. وفـــى تلـــك الجماعة الغارقة فى لعنة شجرة الأصل، والتى تشعر بأنهـــا أعلـــى من كل الشعوب الأخرى كانت قوات العاصفة هى الـــدرع الواقى، هى المثال الأعلى، وكان أعضاؤها يحملون وشماً على ذراعهم اليمنى يعلن عن فصيلة دمهم، الفكرة التى تمخضت مـــن ناحـــية عن تفكير واقعى كان هدفه أن يتعرف الأطباء على الفور على فصيلة دم المصابين، كان من ناحية أخرى وفى العمق تعبيراً عن أخوة فى الدم، عن أيديولوجية تستند دائماً إلى نقاء الدم وشـــجرة الأصـــل والتربـــية. وكانت فكرة وشم فصيلة الدم فوق الذراع هى الفكرة العكسية لما كان يوشم به الأسرى فى المعتقلات فـــى ذراعهـــم أيضاً، ولكن الوشم فى هذه الحالة كان لتوضيح أن هـــؤلاء الأســـرى منبوذين من الجماعة. الضحية والجلاد كلاهما كان موشوماً برقم.

ولا شـــىء، لا الثقافة ولا الحضارة ولا حتى ما يسميه الناس

بالفكـــر، كـــان يمكـــن أن يجبر الفاعلين على التخلّى عن أفعالهم البشـــعة، ذلك ما عرفناه بعد فوات الأوان. والعكس أيضا صحيح، فالشـــيء نفســـه كـــان يسرى أيضاً على الضحايا فى المعتقلات: فالثقافة والحضارة لم تقو من عزيمتهم، أو تواسيهم، أو تعبئ لديهم القـــدرة علـــى المقاومة، لا شيءَ كان مجدياً، جان أمرى كان قد وصـــف هذا فى كتابه "على حافة العقل".. الجانى مثلاً – كما فى حالة هايدريش – كان يلعب الفيولينه ولديه فم حساس ورقيق.

أمـــا بالنســـبة للضحية فقد صدق عليها ما كتبه جان أمرى: *"تماماً مثل أبيات شعر عن الأسوار العاجزة عن الكلام والأعلام التى ترفرف فى الريح، والتى فقدت معناها، فإن المقولات الفلسفية قـــد فقـــدت أيضا قدرتها على الاستشراف وأصبحت تبدو لنا حيناً مجـــرد تصـــريحات موضوعية وحيناً آخرَ كلاماً فارغاً: أما فى اللحظـــة الـــتى تبدو وكأن لها معنىً، فإن معناها يُصبح مُبتذلاً أو تُصـــبح بلا معنىً على الإطلاق. وإدراك هذا، لم يكن يستدعى أىَ تحلـــيل للـــدلالات أو تحليلاً منطقياً لعلم الصرف. كان يكفينا أن نـــنظر إلـــى أبراج المراقبة، واستنشاق رائحة احتراق الدهن فى المحارق الفخارية".*

ولا محاولة واحدة لشرح ما حدث يمكن أن تساعدنا، كما لن تســـاعدنا الكـــتابة أيضاً، ولاجملة واحدة، حتى ولا بالاستنباط أو بالترتيـــب أو بـــالفهم، فقط: الدفاع الضرورى ضد ما هو موجود فعـــلاً. بعد أن صور الأمريكيون المعتقلين بداخلنا والتقط لى ميلر صـــورة تُبَين أحد رجال العاصفة النازى وقد أغرقه الأسرى فى

إحـــدى البحيرات. وجهه باهت الملامح قليلاً بسبب تيارات الماء المـــتدفقة، غـــير ذلك فوجهه واضح فوق الزى الرسمى المنقط، ولكنهما يبدوان كأنما نراهما من أعماق مخيفة. The evil (الشر) هكـــذا كتـــب لى ميلر تحت الصورة. ما الذى كان سيحدث لو أن أخى قد خدم ضمن طاقم حراسة المعتقلات النازية؟

لـــم يحـــدث أبداً أن نطق أحدٌ من أهلى بهذا السؤال. هل فكر واى به؟ نعم، هذا على أقل تقدير – لابد وأنهم فكرا بهذا السؤال وما حجم الفزع الذى اعتراهما عندما فكرا به؟ ما نطقا به وما تناقشا بشأنه كان الآتى: ما الذى كان سيحدث لو أنه لم يتطوع من نفســـه ضمن قوات العاصفة النازية؟ ولكن لم يكن هذا التفوه بهذا السؤال تعبيراً عن رفض متطرف لمشاركة أخى فى الحرب، فهذا الرفض كان لابد وأن يأتى قبل انتهاء الحرب بسنوات، ولكنه كان مجرد صورة من صور إعادة التقييم العسكرى، مجرد تساؤل عما كان يمكن أن يحدث إذا ما تطوّع فى وحدة عسكرية عادية وليس فـــى قـــوات العاصـــفة. فالقوات العسكرية العادية كانت خسائرها البشـــرية أقـــل بكثير من سلاح العاصفة. أضف إلى ذلك: لم يكن الجـــيش له أية علاقة *بكل تلك الأشياء الفظيعة*. فى الخمسينيات، فـــى بدايـــة الخمســـينيات كان الجيش يعتبر شيئاً *مشرفاً* بلا شك. الجـــيش كـــان يضـــم جنوداً يقومون بواجبهم *فقط*.قوات العاصفة النازية كانت تؤدى أكثر من واجبها. *شرفنا يعنى إخلاصنا*، مقولة كانـــت مكـــتوبة فوق أحزمتهم. لو كان فقط قد اختار القوات التى ذهبـــت إلـــى أفريقيا. ولكن حتى ذلك كان يتجاهل بالطبع ما كان أبـــواى يعرفانه بالفعل، فحتى فى أفريقيا كان يمكن لأى جندى أن

يصـــاب فى ساقيه. ربما كان القدر فى أفريقيا سيتخذ مساراً آخر، كان هذا ما فكرا به.

كانت رغبة أخى بالفعل أن يحارب فى أفريقيا. روميل. ثعلب الصحراء. أفريقيا. تصور رومانسى عنها. فى يومياته رسم لأسد يقفـز خلـف إحـدى الأشجار، سعف نخيل وثعبان يزحف فوق الأرض. رسـم الأسـد كان جيداً فعلاً. رسم بدائى آخر لفاترينة محـل. فـوق المحل لافتة: *معاطف فراء، فراء حيوانات. ملابس جاهـزة للـرجال والسيدات. نماذج لرؤوس الحيوانات المحنطة، تحنـيط الحـيوانات. تحت أشكال الحيوانات*. ثم يلى كل ذلك اسم أبى: *هانس تيم*.

فـى بداية عام ١٩٢٩ افتتح أبى محلاً لتحنيط الحيوانات بعد أن كـان قد عمل لسنوات عند أحد محنطى الحيوانات المشهورين فى هامبورج. لم يتعلم أبى هذه المهنة، ولكنه اكتسب المعرفة بها عـند عمّـه فى كوبورج. كانت له عين تتعرف بدقة شديدة على الحـركات والنسـب ، وكانـت له موهبة غير عادية فى تحنيط الحيوانات حتى لتبدو حية. الصور التى التقطت لحيواناته المحنطة تؤكد كلامى، حمار وحشى، أسد، العديد من الكلاب، وخاصة تلك الغوريلـلا. كثير من الصور التقطت أثناء إنهائه لعملية التحنيط، أبـى فـى مـريلة بيضاء وهو يصب جسد الغوريللا فى الجبس، وصورة أخرى للحيوان بعد تحنيطه: ذراع الغوريللا اليمنى تمسك بشـجرة، فمه مفتوح، تبرز منه الأسنان، اليد اليمنى تضرب على صدره، ترى بوضوح أصابعه وأيضاً قضيبه، كان صغيراً لدرجة

تثـــير العجب. عينا الحيوان تلمعان، وأيضا شفتاه، اللتان تحيطان بفكـــه الكبير. الحيوان يمسك بالشجرة فى قوة، ولا أحد يعرف إذا كان قد نزل لتوه من الشجرة ليهاجم المراقب، أو أنه استكان لمدة ثانـــية واحـــدة مـــن أجـــل أن يهرب فى الثانية التى تليها؟ كانت الغوريلـــلا تثير فزع كل السيدات المترددات على المحل، هذا ما قالـــه لى أحد الصبيان الذين كانوا يعملون لدى أبى. حتى جاء يوم شـــكت فـــيه إحداهن من منظر قضيب الغوريللا وطلبت أن يربط أحدهـــم فوقـــه رباطـــاً حتى لا يظهر. ومنذ تلك اللحظة أصبحت الغوريللا مثاراً لضحك كل من يراها.

صـــورة لأخى وهو فى ملابس البحارة، يمسك فى يده بحقيبة المدرســـة البلاســـتيكية. ملابس البحار ذات الأزرار الذهبية بلون الـــنار كـــان أبـــى قد طلب أن يصنعها أحد الترزية خصيصاً له. الصـــبى كـــان يـــنظر بكل جدية للكاميرا. إلى جانبه يجلس كلب رعـــى. هل كان الكلب محنطاً أم حياً؟ ولكننى أعتقد أنه كان بللو، كلب الرعى الذى كان أهلى يملكونه آنذاك.

الغوريلـــلا كان قد حنطها أبى من أجل متحف أمريكى، كنت أود أن أعـــرف لأىّ مـــتحف. ربما يمكن أن أراها الآن فى قسم الحـــيوانات فى متحف بدنفر أو بشيكاغو. أبى كان يعمل فى ذلك الوقـــت لحساب المتاحف والمعارض الخاصة والزبائن العاديين. أعماله كانت تُصوّر فى المجلات المتخصصة ويضرب بها المثل. فـــى بدايـــة الثلاثينـــيات تلقّى عرضاً للعمل محنطاً للحيوانات فى

متحف العلوم الطبيعية بشيكاغو. فكّر كثيراً فى قبول العرض، الذى كان يعني أن يهاجر. ولكنه قرر أن يبقى فى ألمانيا ويقيم لنفسه عملاً حراً فى هذا المجال. السبب كان العائلة. سبب آخر أعمق أنه لايحب أمريكا. كان يريد البقاء فى ألمانيا. ألمانيا لم تكن بالنسبة له مجرد بلد، ولكنها كانت البلد *الوحيد* الملئ بالتاريخ، التاريخ الذى كان يضمّه، التاريخ الذى كان مغموساً به، التاريخ الذى كان فخورا به. لم يكن جواز سفره فقط ألمانيا ولكن وطنه كان ألمانياً، لغته كانت ألمانية، شعبه كان ألمانيا، وكلمة ألمانى كانت تضم كلمة الشعب فى أصلها: فى اللغة القوطية تيوت، كانت تعنى الأصل، الشعب.

الهجرة لم يكن يتصوّرها إلا فى حالة الضرورة القصوى فقط، أن يهاجر المرء كان يعنى بالنسبة له شيئاً مثل خيانة الوطن. توماس مان كان مثلاً خائناً، فهو قد وافق فى أحد أحاديثه الإذاعية على أن تضرب لوبيك بالقنابل وتهدم، خائنة كانت أيضاً مارلين ديتريش، كانت قد ظهرت فى الزىّ العسكرى الأمريكى وهى *تتراقص* مع بعض جنود الجيش الأمريكى.

بعد الحرب، كان ذلك فى الشتاء القاسى من عام ١٩٤٦ تلقينا صندوق إعانات بداخله أشياء مجهولة بالنسبة لى آنذاك: رقائق ذرة، سكر بنى اللون، معلبات لحم محفوظ، لبن مجفف وعصائر مابل. داخل الصندوق أيضا قميصان وزوجان من الأحذية، حذاء برقبة أسود اللون، جديد وله كعب من جلد مغطى بالكاوتش فى وسطه نقطة حمراء. حذاء كان يعجب به المعارف والأقارب كأنه

تحفـــة فنية. قال أبى فى ذلك الوقت: أنا غبى، لماذا لم أهاجر إلى أمريكا؟ كلمة أصبح يرددها كثيراً منذ ذلك الحين.

ارتـــدى أبـــى الحذاء، وكان صغيراً عليه، أصغر من مقاسه بنمرتيـــن، ولـــم تجـــد محاولات صانع الأحذية فى توسيعه. بقى الحـــذاء صغيراً. ومع ذلك كان يرتديه، ارتداه صيفاً بأكمله، حتى ظهـــر الكالو على قدميه.، عندئذ فقط تخلى عن الحذاء، بادله فى الســـوق السوداء مقابل طعام وسجائر وثلاثة ألواح من الشوكولاتة السويســـرية. فى كل مساء، وبعد الأكل، كنت آخذ قطعة صغيرة منها، طعم الشوكولاتة حتى الآن يثير لدى تلك الذكرى.

أمـــريكا، الســـويد، سويسرا، كانت تلك هى البلاد الغنية، من هـــناك كانـــت تأتيـــنا الشوكولاتة ووجبات المدارس والبسكويت. أمريكا كانت من منظور الطفل بلداً خارق القوى، أقوى بكثير من ألمانيتـــنا الـــتى كان يتغنى بها أبى، وبالتالى كانت أمريكا بالطبع أقوى من أبى. أمريكا هى التى أذلّت أبى وجيله. روسيا كانت بلداً كثـــير الســـكان ولكـــنها كانت ستخسر فى الحرب خسائر دموية. أمريكا على العكس من ذلك كانت البلد الأكبر والأقوى، البلد الذى تبـــنى الجميع قيمه وثقافته. وكان ذلك إهانة لكل من خرج ليغزو العـــالم، لكـــل مـــن كـــان يعتقد أنه من الجنس المختار. الشرف والكـــبرياء. والآن ينحـــنى هؤلاء ليجمعوا أعقاب السجائر، وكان لابـــد أن تعاد تربيتهم مرة أخرى. كانت تلك الكلمة وحدها كافية: إعادة تربية. Reeducation.

فـــى كوبورج بنيت فى أبريل من عام ١٩٤٥ المتاريس فوق الكوبـــرى على نهر الإيتس وحفرت الخنادق على الضفتين. وكان علـــى أحـــد الضباط، ملازم أول أن يدافع عن تلك المتاريس فى مواجهـــة القـــوات الأمريكية المتقدمة ناحيته. كان ذلك اليوم يوماً ربيعياً دافئاً ومشمساً.

فـــى الصـــباح وقعتُ داخل أحد تلك الخنادق المحفورة أمام البيت وأنا ألعب. جلست فوق التربة الرطبة كأننى فى قبر. فوقى زرقة السماء. لابد وأننى أخذت أصرخ مثل المجانين حتى سمعنى أحـــد الجـــنود الألمان وجذبنى من الحفرة. بعد قليل اختفى الجنود الألمـــان، خلعوا زيّهم الرسمى وارتدوا الملابس المدنية، وتركوا بـــنادقهم الآلية ومدافعهم المضادة للمدرعات فى الأدوار العليا من البيـــت. هكذا بكل بساطة. وجاءت مدرعة أمريكية وأزاحت ببطء المقطورة التى امتلأت بالأحجار جانباً والتى كان من المفترض أن تسد الطريق أمام الكوبرى. وبعد فترة وجيزة دق الجرس والنساء الخائفات الموجودات بالبيت ومن بينهم أمى، فتحن الباب، ووجدن فـــى الخـــارج ثلاثة جنود أمريكيين، من بينهم جندى أسود. هكذا انتهى عصر الرايخ الثالث فى كوتبورج.

كـــان ذلـــك هو التحرير. تحرير من الجنود الذين لهم رائحة الجلـــد، تحريـــر من الأحذية المزودة بالمسامير، تحرير من تمام يافندم، ومن الخطوة العسكرية المتعرّجة التى تدق الأرض بالحذاء المـــيرى والـــتى كـــنا نســـمعها مـــن بعـــيد تدوّى فى الشوارع. المنتصـــرون جاءوا سائرين بأحذية كعوبها من الكاوتش، تكاد لا تسمع لهم صوتاً. عربات الجيب العملية بصفيحة الوقود والعامود

المعدن فى مؤخرتها. الزجاج الأمامى يمكن قلبه. رائحة البنزين، بنزين له رائحة مختلفة عن البنزين الألمانى، رائحة مسكرة. ترى الجنود الأمريكيين وهم يجلسون فى تراخٍ داخل عربات الجيب مرتدين زيّهم العسكرى الكاكى اللون، ويرمون لنا، نحن الأطفال باللبان والشوكولاتة والبسكويت. متع كانت مجهولة لنا حتى ذلك الوقت.

رئيس الدائرة فايجماير بزيّه العسكرى البنى اللون، والذى كان الجميع يخشونه قبل يومين من الآن ويحيونه بكل احترام، شاهدناه واقفاً أمام بالوعة المجارى يكنس الشارع، ومرقت بجانبه عربة جيب مسرعة كادت أن تدهسه، فقفز فوق الرصيف وقد لطخته العربة بالأوساخ.

بين عشية وضحاها شاهدنا الناس الكبار، الذين كانوا رموزاً فجأة صغاراً. تجربة كان علىّ مع الكثير من أبناء جيلى أن نخوضها. بالتأكيد هناك علاقة ما بين تلك التجربة وبين الحركة الطلابيّة التى ثارت ضد السلطة، والتى توجّهت فى الأساس ضد جيل الآباء.

قوافل السيارات كانت تجوب المدينة، عربات الجيب وعربات النقل، والسيارات المصفحة، بينما أخذ الأسرى من الألمان يتدفقون فى الشوارع مرتدين الأسمال. الاستعداد الكبير لتقبّل شكل الحياة الأمريكية، للأفلام الأمريكية، الأدب؛ الموسيقى؛ والأزياء الأمريكية. لم يكن الانتصار انتصاراً عسكرياً فقط، بل كان أيضاً استسلاماً بلا شروط لجيل الآباء بكل قيمهم وشكل حياتهم. بدا لنا

الكبار مضحكين، كان الطفل يحس بذلك الإذلال لجيل الآباء ولم يكن قادراً بعد أن يجد له سبباً منطقياً. لفترة من الزمن كان لزاماً على الرجال أن يقفوا ويحيّوا الجنود الإنجليز، أى جنود الاحتلال المنتصرين بأن يرفعوا قبعاتهم. كان الطفل يراقب الكبار، أيضاً النساء، وهم ينحنون ليجمعوا قبعات الجنود. رجال كان الناسُ منذ فترة وجيزة يحيونهم بأيدى مشدودة، هؤلاء الرجال كانوا ينهون ويأمرون بأصواتهم الرعدية، أصبحوا الآن لا يتحدثون إلا همساً، ويقولون أنهم لم يعرفوا عن كل تلك الفظائع شيئاً، لم يقصدوا أن يتطور الوضع هكذا، لابد أنه كان يوجد بينهم خونة، هكذا كانوا يقولون.

أبى كان يرفض الموسيقى الأمريكية والأفلام الأمريكية وموسيقى الجاز. أمركة كل شىء. كان ذلك الجيل قد فقد سلطته على الأمر والنهى فى الحياة العامة، ولم يتبق له سوى الأمر والنهى فى البيت، داخل جدرانه الأربعة.

لم يعد المعلمون يدرّسون المناهج القديمة. المدرّس الذى كان يدعى بونرت، وكان المدرس الوحيد بالمدرسة الذى استُبعد فى فترة النازى من المدرسة لأسباب سياسية، أصبح اليوم يدرّس اللغة الألمانية والتاريخ. كان يدرس لنا المادتين ويوضح لنا غباء وإجرام النازى، كما كان يتساءل معنا عن الأسباب التى أتت بالنازيين إلى الحكم، ويتساءل عن سبب *الطاعة العمياء والولع بالخدمة فى الجيش* لدى الشعب الألمانى. وكان ينتقد كل تلك القيم ويأتى لنا بالأمثلة. أبى الذى كنت أحكى له عن هذه الحصص، كان ينفعل ويثور على الطريقة التى فرضها علينا المنتصرون فى

التربـية. ولكـن لم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً. وكان الطفل يشعر بعجـز الأب، ذلـك الغضب الذى يعبّر عنه فى كلمات ثائرة كان يكشف عجزه.

فى فرنسا المحتلة رأى أبى ذات يوم جندياً ألمانياً يعطى طفلاً تفاحـة. أخـذ الولـد التفاحة ورماها بكل احتقار بعيداً. قصة عن معنى الكبرياء كان أبى يحكيها مراراً وتكراراً.

أثـناء رحلة لنا بالقطار أراد ضابط أمريكى أن يهدينى قطعة مـن الشـوكولاتة، رفضـت أن آخذها منه. هزّ الأمريكى رأسه متعجـباً. أبـى أخذ يقص تلك القصة بعد ذلك، كأنه يحكى قصة بطولية. بالطبع كان كارل هاينس سيتصرف بالطريقة ذاتها.

جـيل فقـد قوتـه علـى المستويين؛ السياسى؛ والعسكرى؛ ومسـتوى التفكير أيضاً، وتعامل هذا الجيل مع تلك الحقيقة بنوع مـن الإحسـاس بالمهانة، بالعناد والتعنت. بعد ذلك بعد أن بدأت الحـرب الباردة، نشطت القوى الإصلاحية مرة أخرى فى البلاد، ولكـن ظلّـت الرغـبة فى السيطرة طاغية لفترة طويلة، ولكنها انحصرت فى السنوات التى أعقبت الحرب مباشرة فى البيت فقط، فـى الحـياة الشخصـية. رغم أن تلك الرغبة فى السيطرة كانت متوجهة فى الأساس ضد ثقافة المنتصرين.

لعل أحد أهم الاختلافات بين ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية، أى بيـن ألمانـيا الديمقراطية وألمانيا الاتحادية، أن ألمانيا الغربية اعترفـت بالذنب الجماعى وواجهته، أى ذنب الشعب كله تجاه ما

حـدث أثـناء فـترة النازى، وهو ما سمح به المناخ الديمقراطى بالـبلاد. فهـتلر انتخبه الشعب. أما فى ألمانيا الشرقية فقد سادت نظـرة ميكانيكية قصيرة فرقت بين المخادع وبين المخدوع، حتى أنهم حولوا الرأسماليين المخادعين والعمال إلى مخدوعين. فتحول الذنـب بذلك إلى قضية طبقية، تكمن أسبابها فى المصالح الطبقية المتعارضة. وهكذا لم يسائل أحد الفكر التسلطى وميل الألمان إلى سلوك الخضوع للسلطة، بل إن المجتمع فى ألمانيا الشرقية اعتبر هذا الخضوع أخلاقيات بروسية إيجابية لابد من تبنيها فى المجتمع الاشتراكى. الظروف الاقتصادية تغيرت بفعل الثورة فى المجتمع الاشتراكى، على الأقل على السطح، تغيرت بفعل الجيش الأحمر، وبسـبب تدخـل الاتحاد السوفيتى. ولكن لم يصاحب التحول فى الظـروف الاقتصادية ثورة ثقافية، أى لم يحدث تمرد على *شكل الحـياة* الـذى سـاد بين جيل الآباء المذنب. لم يحدث أن جرب المجـتمع أى أشكال جديدة للحياة الجماعية، لم يحدث أن تحررت العلاقـات بيـن الجنسـين، لم تتكون قدرة على النقد تجاه أشكال السلطة الحكومية، لا حرية تعبير، لا مشاركة فى اتخاذ القرارات على قاعدة ديمقراطية، لا وجود لمؤسسات اجتماعية قائمة بذاتها. بـل حـتى إذا حدث وفتح أحد الأهالى حانة ولم تكن تتبع الدولة كانـت تعتـبر مثاراً للقلاقل، أى ماكينة تصوير كانت تمنع لأنها يمكـن أن تـؤدى إلـى زعزعة استقرار النظام، وأى آلة حاسبة للجيب كان ينظر لها بعين الشك لأنه يمكن بواسطتها تزوير عوائد الإنـتاج التى يُقال عنها دائماً أنها مرتفعة. وأى نقد كان يوجه إلى هـذا التطور فى المجتمع، حتى لو كان نقداً متضامناً مع النظام،

كان يعتبر مدسوساً من الغرب، من أمريكا ومن الرأسمالية.

لا يتذكر الصبى أنه حدث أن شجّعه أى من والديه على عدم الطاعـــة - حتى ولا أمه - *لا تتدخل فيما لا يعنيك، كن حريصاً*، هـــذا نعم، ولكن أبداً لم يشجعه أحد على أن يقول لا، أن يرفض، أن يكـــون غـــير مطيع. تربية الأطفال على قوة الاحتمال - طبقاً لـــرأى الجماعـــة - تلـــك التربية أدت إلى خوف المواطنين من السلطة.

أبى كان قد ذهب بعد أطلق سراحه من الأسر الإنجليزى إلى هامـــبورج، وأنـــا وأمـــى رجعـــنا عام ١٩٤٦ من كوبورج إلى هامبورج. وجد بين الأطلال ماكينة خياطة معاطف الفراء، زيّتها ونظّفهـــا وفـــتح محـــلاً لمعاطف الفراء فى بدروم البناية التى كنا سنسكن فيها. بعد أن أُطلق سراحُهُ لم يكن يملك أى شىء فيما عدا زيّـــه العســـكرى الأخضـــر الخـــاص بالســـلاح الجوى. ساعته السويسرية الخاصة بالطيران سرقها منه أحد الجنود الإنجليز أثناء أســـره، كـــان يحكـــى تلك الحكاية مراراً وتكراراً. أما حذاؤه ذو الرقـــبة المبطـــن بجلد الخنزير، فكان يحكى عن اختفائه حكايتين، إحداهما تقول أنّ أحد العمال البولنديين المحررين قد انتزعها منه عـــنوة فـــى محطة قطار دامتور تحت التهديد، الحكاية الثانية؛ أنه قايض الحذاء بزبد و فراء السنجاب. ربما كان يملك فعلاً زوجين من حذاء برقبة ترك أحدهما عند أخته. إحدى الصور التى مازالت عالقة بوضوح فى ذاكرتى عن أبى، تلك التى يرتدى فيها "بنطال"

الفروسية القصير الذى يربطه عند سمانة ساقه، وحذاءه ذا الرقبة، وكيف يتحرك هنا وهناك وهو بهذه الهيأة مثل أبى قردان. النصف الأخـــر من المنزل الذى وجد فيه أبى تلك الشقة فى البدروم، كان قـــد دُمّـــر بفعل قذيفة طائرات، بحيث أن حائط إحدى الغرف قد تحـــوّل إلـــى حـــائط خارجى. الهدم المتبقى كان مكوماً أمام نافذة الـــبدروم مشـــكلاً منطقة من الردم على هيئة هضبة تسمح باللعب فـــيها. فـــى جبال الأطلال كنت تجد دائماً أشياء مختلفة مثل قدور الطـــبخ، صـــنابير المـــاء، حوض الحمام، أعمدة سرير معدنية، ســـكاكين، مواســـير مـــاء، بالوعات صرف الأحواض، ساعات، ماكيـــنات خـــياطة و"مكـــاوى" صدئة اتخذت أحياناً بفعل الحرارة أشكالاً فريدة.

ندبة على شكل نصف دائرة فوق جبينى تذكرنى بتلك الألعاب فـــى هضاب الأطلال، ورائحة المونة والخشب المتعفن المرتبطة بهـــا. الصبى الذى كان جالساً على الأرض ينظف بشاكوش قديم قالباً من الطوب لبناء بيت حجرى أصابه فجأة إطار عجلة معدنى فـــى جبهته، كان صبى آخر قد قذف بها دون قصد. غشاء أحمر فـــاقع انبسط فوق عينيه، فى البداية لم يستشعر ألماً، وإنما تعجّب فقـــط مـــن هذا اللون الأحمر، فوق يديه، ذراعيه، قميصه، ثم بعد ذلك طعم الدم والحديد.

أبـــى كـــان ينام فوق اللوحة التى كنا نستعملها لندبس فوقها معـــاطف الفـــراء بعضها فى بعض، لوح خشبى. لا أستطيع أن أتذكر الآن أين كانت أختى فى تلك الأوقات. كانت غالباً تقيم لدى

أقاربنا في شلسفيج هولشتاين. أنا كنت أنام مع أمي في السرير الوحيد الموجود في بيتنا. حائط الغرفة كان واقفاً في الخلاء كأنه حائط المنزل وكانت تتخلله الرطوبة، وكان الماء يتجمد في الشتاء فوق الحائط ليكوّن طبقة زجاجية لامعة تتحول في المساء إلى مناظر خرافية تحت ضوء الشموع. كنا ننام مرتدين السترات الصوفية والمعاطف، أبي كان يغطّي نفسه بمعطفه العسكري الذي صبغه بلون آخر، وفوق ظهره كان الحرفان مطبوعين أ ح (أسير حرب).

كان يجلس أمام ماكينة خياطة معاطف الفراء و"يخيط" فراء السناجب، يمسح فوق الشعر الرقيق الخفيف الذي كان يتخذ ظلاً رمادياً مع أقل تيار هواء يتعرض له. عمل شاق لصناعة هلاهيل رخيصة، عمل يجعل أبي يسب ويلعن طوال الوقت،لأنه خاط شعر الفراء ولم يخط الجلد.

كان ذلك المعطف الذي خاطه أبي في ذلك الوقت أول معطف صنعه في حياته.

بعد سنتين استطعنا أن نخرج من شقة البدروم ونؤجر شقة حقيقية، أبي وأمي وأنا، أقمنا في حجرة جافة بها مدفأة. وبعد ثلاث سنوات أخريات انتقلنا إلى شقة فوق محل به ورشة. أعاد أبي بناء المحل وجلّد الحوائط بخشب الزان المصقول وبنى حجرتين للقياس. عيّن أبي لديه ست خيّاطات وعاملين لسلخ الفراء من الحيوانات. السيد كوته، رئيس العمال كان "أعور". كان أثناء الجيش قائداً لإحدى المدرّعات، أصابته شظية في عينه. كوته لم يكن جيداً في عمله، والمعاطف التي يصنعها كانت مليئة بالعيوب:

إما أن طول المعطف غير مناسب، أو أن الألوان لم تكن جيدة أو شعر الفراء به عيوب.

كان أبي يقول أنه لا يرى جيداً بعين واحدة. اشتكى العديد من الزبائن ولكن أبى تمسّك بالعامل الذى أصابته الحرب بعاهة مستديمة، العامل الذى كان دائماً ما يدير لنا ظهره ويتوجه للحائط، وكنا نعرف عندئذ أنه ينزع عينه الزجاجية لينظفها بمنديل.

عندما كنا نحتفل بعيد ما – وفى ذلك الوقت كنا نحتفل كثيراً– كان يدعى إلى حفلاتنا شاب يملك محلاً صغيراً لصناعة المعاطف الفراء. هذا الشاب كان مبتور الساقين، كان يحضره إلينا رفاق آخرون بالسيارة. أبى كان يحمله فوق ذراعيه إلى الورشة، وهناك وفوق اللوح الذى تثبت فوقه المعاطف كانت أمى قد أعدّت المائدة: ريش اللحم والسجق وسلطة البطاطس. والرجل مبتور الساقين من تحت جذعه مباشرة، كان يُجلسه الآخرون فوق مقعد. وبين الحين والآخر كان أبى يحمله إلى الحمام. كان الضحك كثيراً فى تلك الأيام، حتى ذلك الرجل كان يضحك أيضاً. كان مايزال قادراً على الضحك، الضحك عالياً *ومن قلبه*، وهو شيء كنت أتعجب له كثيراً وأنا طفل، أتعجب منه وهو يجلس ممسكاً باللوح الخشبى ويضحك، *يهتز من كثرة الضحك*، وعندما يذهب الجميع كان أبى يحمل هذا الشاب إلى الخارج، هذا الشاب الذى كان مجرد جذع رجل، يحمله إلى السيارة المنتظرة بالخارج.

بعد ذلك كان أبى وأمى يجلسان أمام لوح خشبى يستخدم لحمل الأطباق والأكواب والزجاجات الفارغة، كانا يجلسان

ويدخـــنان ويصـــمتان. فى تلك المناسبات كانت أمى أيضا تدخن. وإذا مـــا أنهـــت ســـيجارتها كان الحديث يتطرّق دائما إلى الشاب المبـــتور الساقين وفى كل مرة كان الحديث يدور حول المضمون نفســـه، لو كان أخى قد نُقل له دم بالكمية الكافية فربما استطاع أن يـــبقى علـــى قيد الحياة. هل فعل الأطباء فعلاً كل ما فى وسعهم لإنقـــاذ حـــياته؟ أو أنه نقل بساقيه التى أصابتها الشظية إلى أدنى درجـــة مـــن المستشفى العسكرى؟ كان المصابون يعالجون طبقاً لفرصـــهم فى النجاة. فكلما كانت الإصابة خطيرة كلما تأخروا فى علاجهـــم، وهكذا كانوا يوفرون فى عدد العمليات الجراحية التى كـــانوا يجـــرونها. وكثـــيراً مـــا كان المصابون بإصابات خطيرة يموتون متأثرين بجراحهم. وأخى استطاع أن يبقى على قيد الحياة بعـــد العملـــية التى أجريت له لمدة سبعة وعشرين يوماً، فقد كان يكتب لنا خطابات من المستشفى العسكرى.

هل كان هناك نقص فى أكياس الدم؟

هـــل رفـــض الأطـــباء مـــتابعة علاجـــه؟ هكذا كان والداى يتساءلان.

كتـــب أبى مرة أخرى لطبيب الجيش راجياً أن يقدم له شرحاً دقيقاً لما حدث. لم يكتف بخبر وفاته المختصر – *يؤسفنا أن نبلغكم باستشهاد ابنكم البطل* – كان يريد معرفة المزيد، وهكذا كتب إلى ســـرية الجمـــاجم ، بل وكتب إلى الكتيبة التى كان أخى بها. وفى خطـــاب تلقـــاه أبى رداً على ما كتبه، قيل له أن السرية التى كان أخـــى بها قد تم حلّها وتفرقت بين العديد من الوحدات العسكرية.

وكـــان هـــذا يعنى أن السرية قد *فنيت من الوجود*. كلمة *فنيت من الوجود* تستخدم فى قاموس المجرمين الذين يصفون بها أتباعهم.

تقـــص أختـــى عن أخى، عن لعبهما سوياً، عن المقالب التى كانـــا يشتركان فيها. كيف أنها، هى الأخت الكبرى قد اصطحبت أخاهـــا إلى السينما ذات يوم، وكيف أنهما ذهبا إلى السيرك، وبعد ذلـــك عرضت عليه أن تحوله إلى أرنب صغير. ولكنه كان يريد أن يختبر قدراتها أولاً على طفل الجيران، حتى يتأكد أنها تستطيع أن تعيده مرة أخرى إنساناً.

الغريـــب أنه لم يذكر أختى أبداً فى أى من خطاباته. السؤال كان فقط عن الأخ الصغير.

خطاب إلى أبى فى ٤٣/٣/١٧

تكتـــب إلـــى أنه لا يجب إخبار أمى بأننى ذهبت إلى القتال. أقول لك أننى لم أذكر ذلك فى أى من خطاباتى إليهم فى المنزل، وأنـــنى لن أذكر ذلك أيضاً فى المستقبل. إلى جانب ذلك فإننى لا أجـــرى وراء الأوسمة، فأنا كنت دائماً ما أقول لنفسى أن الجرى وراء الأوسمة هراء كبير، أنا لا أفعل سوى ما يأمروننى به، وأى شيء آخر لا يخصنى أبداً. ما الذى ساجنيه إذا نلت وساماً وفقدت يداً؟ حياتى ستكون قد انتهت ومستقبلى المهنى أيضاً.

الانطباع الذى أتذكّره هو أن أبى عانى لفقد أخى أكثر من أمى. أمى عاشت حداداً لفترة وأثناء ذلك استطاعت أن تتجاوز المحنة، بأن وجدت من تصبّ ثورتها عليه، *الشلة الفاسدة*، وكانت تعنى بها النازيين. ولكنها كانت تعنى أيضا الجيش، وكلمة *الناس فوق* كانت تعنى بها الساسة، الحكام.

كم من الليالى سهرت من أجل هذا الصبى مع كل حمى كانت تصيبه، كم من الحب، كم من الرعاية والعمل الشاق بذلا فى تربيته، ليرسل بعد ذلك بعيداً، ويصبح ذا عاهة ثم يموت، هكذا بكل بساطة.

أبى لم يسمح لنفسه بأن يحزن عليه، سمح فقط للغضب أن يحتل مكاناً، كان غاضباً، لأن قوة الاحتمال والواجب والتقاليد كلها قيم لا يمكن أن تكسر، ولم يغضب للأسباب التى جعلت ابنه يموت، فوجّه غضبه إلى هؤلاء القادة فى الجيش غير المتخصصين، إلى الجبناء الذين اختبأوا فى جحورهم. كانت تلك هى مادة الحديث المفضلة مع رفاقه الذين شاركوه الحرب. كانوا يأتون كل مساء يجلسون سوياً ويشربون الكونياك والقهوة، ويتحدثون عن سير المعارك. كانوا يحاولون شرح أسباب الهزيمة. كانوا يعيدون تنفيذ المعارك، يصححون الأوامر ويعزلون القادة العاجزين عن تحقيق انتصارات كما انتزعوا من هتلر سلطة إصدار الأوامر العسكرية. يصعب اليوم تصور أن تلك هى الأحاديث التى كانت تدور كل مساء بين الناس فى هذا الجيل.

لفترة طويلة، أخذ أبى يفكر إذا كان سينضم إلى الحزب الفيدرالى الألمانى الديمقراطى أو ينضم إلى حزب ألمانيا القومى.

معارفـــه الأعضـــاء فى هذا الحزب أو ذاك كانوا يشجعونه على الانضمام لحزبهم، مدركين أنه متحدث لبق وقادر على الارتجال. كـــان مهـــتماً بالسياســـة، إلا أنه لم يستطع أن يقرر إذا كان يريد الانضمام لأى من الأحزاب فعلاً. لم يكن أبى قد انضم إلى الحزب الـــنازى، بالرغم من المحاولات الكثيرة التى جرت لكسبه عضواً فـــى الحـــزب وكل الوظائف الهامة التى عرضت عليه حتى يقبل الانضمام؛ كان متحدثاً جيداً.

ولكن من عرضوا عليه ذلك كانوا بالنسبة له *أجلافاً*.

فـــى بداية الخمسينيات، فى عام ١٩٥٢ على ماأعتقد.. عُيّن أبـــى ســـائقاً، كان الرجل يقود له العربة بين الحين والآخر أثناء خدمته فى السلاح الجوى بكونيجسبرج.

الطفـــل عمّـــده ماسا وكان قد استوحى الاسم من أحد الكتب الكولونيالـــية التى كان يشتريها من محلات الروبابيكيا. كتب عن المســـتعمرات الألمانـــية والإنجليزية فى أفريقيا. ماسا، هكذا كان يـــنادى العبيد السود أسيادهم. أبى وجد الاسم لطيفاً وأصبح ينادى ســـائقه بهـــذا الاســـم، بعـــد ذلك بقليل أخذ جميع المستخدمين فى الورشـــة يـــنادونه بالاســـم نفسه. ومازال حتى اليوم أجهل اسمه الحقيقى، رغم أنه عمل لدى أبى ثلاث سنوات كاملة.

ماســـا كان يرتدى زىّ السائقين رمادى اللون، وكان ببساطة *المـــرمطون*. كـــان يوصل المعاطف المخزّنة لدينا إلى الزبائن، يقضـــى لـــنا حاجياتـــنا، يقود لأبى السّيارة ليذهب إلى اجتماعات النقابة، يعيد طلاء الأبواب فى المحل والشقة. ولكنه قبل كل شىء

يـتحدث كثـيراً. كان رجلاً يجيد الحديث فى كل شىء. ولكنه فى الوقت نفسه أيضاً كان لا يفرّق فى حديثه بين الأطفال والكبار، أى أنه كان يأخذنى مأخذ الجد. ماسا كان شيوعياً.

أول شيوعى أراه فى حياتى. كان رجلاً تتملكه كراهية عميقة لكلّ السادة، خاصة أولئك الذين عمل لديهم سائقاً، كان يستثنى أبى فقط من كراهيته. فقد أنقذه ذات مرة أثناء الحرب عندما كان قائداً له. كنت أودّ أن أعرف بشدة كيف ومتى، ولكننى أحاول جاهداً ألاّ أجعـل الذاكرة تقودنى إلى افتراضات كنت أود أن أحدث وأصدق أنها وقعت فعلاً.

بعـد ثلاث سنوات سرّح أبى ماسا من عمله –*كانت التجارة تسـير بشكل سىء* – ولكنه وجد له عملاً عند أحد معارفه، عمل لديـه بوابـاً. فحقق أبى بذلك ما يطمح إليه دائماً: *أنا أهتم بالناس التى تعمل لدىّ.*

فـى ذلـك الوقـت، كنت قد أصبحت فى الرابعة عشرة من عمرى، بدأت إدراك التناقض فى حياة أبى، والذى كان يتضح لى شيئاً فشيئاً. فمن ناحية أرى أبى الذى يشترى لنفسه القمصان، ستة من القميص نفسه دفعة واحدة، أو الذى يجعل أحد حائكى الملابس يـأتى لديـنا فى المنزل، ويقيم لمدة شهرين متتالين ليحيك للعائلة، كأنـه يقيم فى ضيعة أحد الأغنياء على نهر الألبه، كان يحيك لنا، بنطلونات، سترات، ولأبى بذلاً أغلبها من اللون الرمادى، رمادى فـاتح أو رمادى "أغمق" قليلاً. ألوان الزىّ العسكرى. كان يرتدى

السترة وفى الجيب منديل "منقط" باللون الأبيض أو الأزرق. كان أبى يحيّى السيدات بقبلة على ظهر أياديهن. كان يجيد الحديث عندما كان يُدعى لمأدبة غداء أو عشاء، وبعد الانتهاء من الحساء كان يقرع بسكينه على كأسه، ويشرب نخب اليوبيل أو نخب العروسين أو نخب من يكرم فى ذلك اليوم. وأثناء اجتماعات النقابة أو اجتماعات جماعة صانعى معاطف الفراء فى هامبورج، تلك الجماعة التى أسسها بنفسه، كان يتحدث بطلاقة شيقة بحيث كان الجميع ينصتون إليه. كان يستطيع أن يلقى النكات، نكتة واحدة دائماً ولم يحدث أبداً أن كانت خليعة. عادة كانت نكات عن الرايخ الثالث، هتلر، جوبلز، جورنج، ريبنتروب* وزير خارجية الرايخ فون ريبنتروب الذى كان النازيون أنفسهم يرونه غبياً ومتعجرفاً. دُعى هذا الوزير ذات مرة إلى يوبيل بمناسبة الاحتفال بذكرى اعتلاء ملكة هولندا العرش، ودُعى معه عديد من وزراء الخارجية الأوربيين. أُقيمت مأدبة كبيرة، وكانت الملكة فى ذلك اليوم تعانى من انتفاخات فظيعة فى بطنها، وأثناء الطعام كانت تطلق ريحاً قوية ومسموعة. فوقف وزير خارجية فرنسا وقال: آسف يا جلالة الملكة. ثم أكمل الناس طعامهم، ومرة أخرى أطلقت الملكة ريحاً قوية ومسموعة، هنا وقف وزير خارجية انجلترا وقال: آسف يا جلالة الملكة. ثم أكمل الناس طعامهم.

* جوبلز كان وزير الإعلام فى الرايخ الثالث واشتهر بقدرته على خلق سياسة تؤثر فى الرأى العام بشدة، وكان جورنج قائد الجيوش النازية أثناء الحرب العالمية الثانية. ريبنتروب كان حلفاً وقعته دول البلطيق مع روسيا فقامت ألمانيا النازية على اثره باجتياح تشكوسلوفاكيا.

ومرة ثالثة أطلقت الملكة ريحة قوية جداً، وهنا قفز وزير خارجية الرايخ فون ريبنتروب وزمجر فى القاعة قائلاً: جلالة الملكة، هذه الريح وكل الرياح الثلاث القادمة ستكون من نصيب حكومة الرايخ.

كان أبى يقص تلك النكات بدون أن يضحك مع الضاحكين، كما لم يكن يتوقف ليستمتع بضحكاتهم، بل كان يغير الموضوع بتلقائية ويتحدث عن شىء آخر، عن شىء موضوعى. لم يكن يلقى بالنكات ليكسب ود الحاضرين، وكان يشرب فى نخب الحاضرين، ويعلو الضحك، وتصرخ السيدات ضحكاً، كان أبى يقف ويجلس عند البيانو، ويبدأ فى العزف، يرتجل. ويخفت الضحك وأيضاً الحديث، ويقف بعض المدعوين مندهشين ممسكين بسجائرهم وكؤوس النبيذ فى أيديهم وينصتون. يرفع أبى يديه فى حركة مسرحية ساخرة ويشير للمصفقين أن يسكتوا، ثم يأخذ علبة من جيب سترته، ويسحب منها سيجارة بدون أن ينظر إلى العلبة، يخبط على السيجارة بلطف، ثم يغلق العلبة ويضعها مرة أخرى فى جيبه. يشعل عود الثقاب فى حركة سريعة، إشعال السيجارة وإطفاء عود الثقاب المشتعل، كل ذلك كان يفعله بسلاسة، فى حركات رشيقة لا تتغير أبداً. يدخن السيجارة التى يمسك بها بين إصبعين منفرجين قليلاً. وفى إصبعه الصغير خاتم به فص ياقوت أصفر.

افتخاره بأنه صاحب مشروع خاص.

شخص يتمنى الناس صحبته فى مجالسهم، فهو مسل ومثير للاهتمام، هذا الشخص كان أبى.

ولكن أبى كان أيضاً شخصاً آخر مختلفاً، الشخص الذى كان يجلس كل مساء منحنياً فوق سجلات متجره يحسب حساباته. التنهدات، هزّ الرأس، فرك اليدين بدون أن يصدر عنه أى صوت – نعم، كان يفرك يديه ببطء، يعتصر هَمّاً، كأنه يعتصر بذلك كل الهموم. الخوف المستديم المحسوس الذى كان ينتاب أبى، وأيضاً أمّى، الخوف من اختفاء الحياة البرجوازية، الخوف من الحراك الطبقى المعكوس، فكرة كان صعبٌ تخيلها. هذا الخوف من فقد التجارة الخاصة، التجارة التى كانت تعتمد فى الأساس على القروض من البنوك.

والأحاديث التليفونية. الأحاديث الصباحية مع البنوك، من أجل إطالة فترة سداد أقساط القروض. سمعتُه أكثر من مرة وهو يتسوّل، أبى، الذى كان فى العادة يهتم كثيراً بمظهره أمام الناس وباستقامته وكبريائه، وكرامته، كان عليه أن يتسوّل، حتى مع زملائه الذين كان يقول عنهم أنهم طفيليون. كان يتسول النقود، خمسمائة أو ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف مارك، مبالغ كانت فى عام ١٩٥٤ كبيرة. ولكنها مبالغ كان يحتاجها بشدة، كانت مبالغ ضرورية لتسديد أقساط البنك، وحتى لا يطيل فترة القروض. إطالة فترة القروض، فكرة مرعبة. ما الذى يمكن أن يفكر فيه الناس؟ هذا كان دائماً هاجسه الدائم ، خوفه على صورته أمام الباقين. ليس بالمعنى السطحى، أى ليس ما سيقولونه، وإنما صورته التى تعكس ما يعتقده المرء في نفسه، أى الجوهر وليس المظهر. لابد أن يكون الجوهر متطابقاً دائماً مع المظهر. فنبالة الأصل جزء من الشخص نفسه، تحدد منذ ميلاده، يحددها الدم

الأزرق الذي يجرى في عروقه، لا يهم إذا كان هذا الشخص نبيل الأصل مفلساً، محكوماً عليه بالفشل، أو فاقداً لكل مظاهر الكبرياء البرجوازية، فهو يبقى نبيل الأصل. أما من ينتمى إلى طبقة برجوازية، فسيتحول إذا أفلس، أو فشل أو فقد أمواله إلى لا شيء، سيفقد حتى ظلّه الاجتماعى. وهنا يكمن السر فى شعوره بالحرج الذى ليس له أى علاقة بكون المرء حسّاساً أم لا، فهذا الحرج كان بسبب أنه يضع الآخرين فى الحسبان، الحرج هنا يعنى الخوف من الفشل، يعنى كيف ينظر الإنسان إلى نفسه، تلك النظرة التى تنطوى أيضاً على كيف ينظر الآخرون إليه، نظرة تخلو من الاحترام.

من أكثر الأشياء إحراجا لأبى، كانت حينما يكون مفروضاً عليه تعرية نفسه أى عندما يكون عليه أن يؤكد أهليته لأن يحصل على قرض ويضع ضمانات السداد، كان عليه أن يعترف أنه قد لا يستطيع أن يسدد قسطاً، إذا لم يعطه أحد مبلغاً من المال. وقسط لم يسدد مثل حجر يسقط فوق رأسك، إذ عندما تعجز عن سداد كمبيالة ما، سيطالب كل من له مال عندك أن تسدد كمبيالاتك ، وكل الكمبيالات التى كتبها أبى على نفسه كانت لا تغطّيها أية ضمانات. ولهذا كان الحديث الهاتفى ، الرجاء، بل التسول، عند أصحابه وزملائه وموظفى البنك، بل وحتى عند الموظفين الصغار، الذين كان فى داخله يود لو يركلهم بقدمه *على مؤخراتهم*.

كان يبرر كل ما يفعله هذا بأنه من باب الشعور بالمسئولية، مسئوليته عن الناس الذين يعولهم. والناس الذين يعملون عنده.

وكان فى العادة يتكلّم عن الناس الذين يخصّونه، الناس *(بتوعه)*، بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة، أى كل فرد مرتبط به بشكل أو بآخر، ولا يعنى بهم فقط أفراد أسرته وإنما أيضاً العمّال لديه. كان يعمل لديه اثنان من محنطى الحيوانات وست خياطات والسائق. ثم العائلة؛ الزوجة؛ الابنة التى لم تتزوج بعد؛ والابن؛ الابن الذى جاء متأخّراً بعض الشىء، وهناك أيضا شقيقتاه. من لم يحسبه هنا كان الابن الأكبر، أخى، الشخص الذى كان بإمكانه أن يساعده. كان يمكن أن يكون صانع فراء، والآن تركزت كل الآمال فىّ أنا، أنا من عليه أن يجعل الأب يستريح ويأخذ مكانه، من عليه أن يصبح صانع فراء، لابد أن يصبح صانع فراء.

كلمة عدم سداد كمبيالة كانت وصفاً للإذلال الاقتصادى الذى يمكن أن يصيب شخصاً ما. وهذا الإذلال حدث بالفعل ذات صيف، وقت حصاد الخيار، فى ذلك الوقت لم يبع أبى تقريباً معطفاً واحداً. ولهذا فقد اخترع لتجارته كلمة جديدة: *تخزين معاطف الفراء*.

ففى كل ربيع كنا نذهب إلى بيوت "المترددات على المحل" ونحضر معاطف الفراء، ننفضها ثم نعلقها فى إحدى الغرف التى بخخنا فيها مبيداً ضد حشرة العثة، لا نبخ الكثير من المبيد ، وإلا امتزجت رائحة النفتالين بالمعاطف، تلك الرائحة القوية التى تبقى إلى الخريف، أى وقت إعادة المعاطف إلى الزبائن مرة أخرى، وإذا وضعنا قليلاً من المبيد الحشرى، يمكن أن تهاجم حشرة العثة المعاطف. وفى الصيف كنّا نُخرج المعاطف بين الحين والآخر من غرفة الخزين إلى الهواء الطلق، وننفضها هناك. ماسا والابن

كـــان عليهما إحضار المعاطف من الزبائن فى الصيف ثم إعادتها مرة أخرى فى الخريف. كان هناك نوع من التدرج، الزبائن الذين كـــانوا لا يملكـــون أكثر من معطف واحد يذهب إليهم ماسا، أما الزبائـــن أصـــحاب المعـــاطف المـــتعددة أو المهمون بحكم أنهم يحضـــرون زبائـــن آخرين إلى المحل فقد كان يذهب إليهم ماسا والابـــن ســـوياً. ماســـا فى الزىّ الرمادى الخاص بالسائقين، كان يحمـــل المعـــاطف أما الابن وكان آنذاك فى فى الثالثة عشرة من عمـــره فكان يقول، نهاركم سعيد، أبى يبعث لكم بتحياته، ويرسل معنا المعاطف. ماسا كان يخلع قبعته ويسلّم المعاطف إلى مالكها. والابـــن يجعل الزبون يوقّع على إيصال تسلّم المعطف. الأب كان يفـــرّق بين المترددات على المحل اللائى كن يفهمن فى الأصول، المـــترددات على المحل اللائى لا يفهمن ما يصح ولا يصح. فمن تفهـــم فـــى الأصـــول كانت تعطى ماسا بقشيشاً، ومن لا تفهم فيه كانت تعطى الابن بقشيشاً.

وكان علىّ حينذاك أن أعطى البقشيش إلى ماسا.

ولكـــن الدخـــل مـــن تخزيـــن المعاطف لم يكن ليعوّض أبداً الخسارة التى حلّت بالتجارة بسبب ركود حركة البيع. الصيف كان يمـــثل الوقت الذى يعجز أبى فيه عن سداد الكمبيالات. كان وقت الأحاديـــث التليفونية الكثيرة وفرك الأيدى. ربما ولهذا السبب كان أبى يبعث بى وبأمى فى العطلة الدراسية إلى الريف، إلى مراعى لونيـــبورج، أو إلى بترسهاجن حيث كنا نمضى خمسة أسابيع فى أحـــد الفـــنادق هـــناك. كـــان يســـافر بنا فى سيارته الأدلر إلى شـــنيفردينجن، إلـــى فندق فيته، أقدم بيت فى المنطقة. كان الفندق

يتكون من بناء طويل من القرميد بنوافذ طليت أطرها باللون الأبيض. أبى كان يمكث ثلاثة أيام. كنا نقوم بالنزهات الخلوية، أو على الأصح كنا نتمشى قليلاً. نمرّ بجنود إنجليز فى قاعدة سولتاو أثناء تأديتهم التدريبات العسكرية. كثيراً ما كان يستوقفه جنود ويسألونه عن أماكن وشوارع ومواصلات. كان الناس يعتقدون أنه إنجليزى يرتدى الزىّ المدنى. له صورة وهو يرتدى حذاء برقبة وبنطالاً رمادياً وقميصاً فاتح اللون وفوقه بلوفر رمادى داكن.كأنه مسؤول عسكرى يراقب المناورات العسكرية ولكن فى زىّ مدنى.

المدرعات كانت تقف متخفية عند أطراف الغابة. كان أبى يقول، إنهم لا يفهمون، وكان يشير إلى الرمال التى تحمل بوضوح آثار جنزير المدرعات. تلك الآثار يمكن أن يراها أىُّ شخص من فوق، ثم عليه فقط أن يدقق النظر أين تنتهى تلك الآثار. أفضل طريقة لضرب المدرعات تكون من فوق. أول مدرعة دمّرها ريتر فون شلايش فى الحرب العالمية الأولى، دمرها فى حركة انقضاض. مبادئ الحركات الانقضاضية؛ أن توجه قذيفتك إلى الهدف. فى السابق كان أبى يقصُّ علينا تلك القصص باستفاضة ويشرح مع حركات يديه كيف يمكن أن نطير بالطائرة من اليمين إلى الشمال. الآن يتوه مع أفكاره فى مكان آخر، كان يدخن، السيجارة تلو السيجارة. وفى العصر كان يشرب الكونياك والقهوة. وفى اليوم الثانى كان يعود أدراجه إلى هامبورج.

بعد أسبوعين كان على أمى أن تقطع رحلتها. فزوجها فى البيت سقط مريضاً فجأة. آلام فى المعدة، تقلص، غثيان، قىء. شخّص الأطباء الأعراض على أنها قرحة فى الاثنى عشر. هذه

واحـــدة من أوضح الصور التى بقيت لدىّ، لأننى لم أعتدها، لأنها لم تكن تتفق مع صورته عن نفسه، كان يرقد فى الفراش ويخضع لعـــلاج طبيعى. أمّى كانت تطبخ له عصيدة الشوفان، بعد سنتين أصيب بأزمة قلبية. بعد ذلك، أصبح شخصاً آخر، كما تقول أمي، أصبح رجلاً مكسوراً. ولكننى أعتقد أن هذه الذبحة الصدرية كانت انعكاســاً للتدهور الذى بدأ قبل ذلك. كانت ردّ فعلٍ فيزيقياً لتدهور تجارته. فترة ما بعد الحرب وما اتسمت به من اقتصاد بلا أساس انتهـــت إلـــى غير رجعة. السوق السوداء كانت الأكثر تناسباً مع قدراتـــه، كانـــت تمـــثله هـــو، الفترة التى كان الارتجال فيها هو الأســـاس، كـــان يكفـــى أن يكـــون لديك *قرون استشعار* وتتوقع الخطوات الرابحة، أن يكون المظهر أهم من الجوهر، كانت فترة تمـــوج بالتقلبات والمراهنات على المستقبل، تجار الخردة أصبحوا مـــن كبار رجال الصناعة، مثل شليكر فى هامبورج، والذى أفلس بعد ذلك، هكذا كان أبى أيضاً، ولكن على مستوى أصغر.

لفترة وجيزة لم يكن المهم الدراسة أو الخبرة أو الشهادات أو الدبلومـــات، وكلهـــا أشياء كان لا يملك أبى أن يقدّمها، ولكن كان المهـــم، المهارة، الأفكار، العلاقات، التصورات والأوهام والقدرة علـــى إقـــناع محدثك. شىء من أسلوب الحياة الأمريكى التى كان يكـــرهها تمامـــاً، ولكنه كان أسلوب حياة يعوّض تماماً النقص فى الدارسة والخبرة، يعوض كيانه كلّه.

تجـــد بيـــن الأطـــلال ماكينة خياطة معاطف الفراء، تأخذها وتزيّـــتها وتفـــتح بها محلاً لحياكة معاطف الفراء. فراء السناجب كـــان قد حصل عليه من ضابط روسى بعد عملية مقايضة معقّدة،

وقـام بتحويل الفراء إلى معطف بمساعدة الإرشادات المكتوبة فى كتاب "صانع الفراء الألمانى"، ثم باع المعطف لزوجة أحد الضباط الإنجليز، أو بالأحرى قايضه بشىء آخر. كان الميجور الإنجليزى يحـرس عمليات قطع الأخشاب فى غابة لاونبورج.وكان الخشب يصـدّر إلى انجلترا كجزء من تعويضات الحرب. فحصل أبى فى مقـابل معطـف الفـراء علـى أمتار عديدة من الفروع الخشبية وقايضـها مـرة أخـرى بسجائر أو بزبد أو بسكر أو بملابس أو بفراء.

هـذا العصـر، عصـر الارتجال، عصر الشطارة، عصر الرغـبة فـى الاكتشاف انتهى فى منتصف الخمسينيات. حتى فى صـناعة معـاطف الفـراء، سادت مقاييس جودة أخرى: ظهرت المعـاطف غير العادية الباهظة الثمن مثل تلك التى يصنعها بيير وأوتسـيلوت ولوكس. فراء كان شراؤه أكبر من إمكانياته المادية. حتى موديلات لمعاطف، وطريقة الحياكة تغيرت. هو لم يتعلم أبداً حـرفة صناعة معاطف الفراء. بل لم يحدث أن عمل بيده فى هذه الحـرفة لوقت طويل. حتى صانعا الفراء اللذان عينهما لديه، كانا يفتقران إلى المقدرة على ابتكار موديلات أنيقة للمعاطف.

كـان أبـى ماهراً فى البيع. كان يبيع كأنه لا يحتاج أن يبيع بضـاعته، كأنه يقدم خدمة للمشترى. طويل القامة، رشيق، أشقر وفـى الصيف كانت بشرته تتخذ لوناً برونزياً، وله عينان *شديدتا الـزرقة، المتحدث الجذاب*، الذى يستطيع أن يتعامل بكياسة، هذا فقط كان رأسماله. عندما طالعت الصور التى التقطت له فى شبابه

خمّنت على الفور أن رأسماله هذا كان قد جمعه أثناء خدمته فى كتيبة المتطوعين فى البلقان، عندما كان يخالط رفاقاً ذوى أصول نبيلة.

ففى بيته لم يكن أبداً بمقدور والدته الحازمة المستقيمة أوخاله أو خالته الذين شب وسطهم بكوبورج، أن يقدموا له قدوة فى هذا السلوك. وطالما كان هو ذلك الشخص المسلّى الوسيم المضحك كان يأتى إليه العديد من النساء لشراء المعاطف، فقط من أجله هو، وكن يصممن على أن يقوم هو نفسه بخدمتهن. كن من أولئك الزبائن الذين لا يأبهون للسعر، والذين تحولوا بعد ذلك مع تطور الموضة إلى المحلات الأكثر أناقة فى وسط المدينة، إلى ليفرمان، محل بيع الفراء الكبير فى هامبورج، وهو المحل نفسه الذى كان علىّ أن أتعلم فيه صناعة الفراء، كما كن يذهبن إلى برجر والذى اشتهر بموديلاته الغريبة. كان الناس يعتبرونها فى ذلك الوقت "شيك". فمجرد أن يحمل المعطف علامة برجر كان يمكن ارتداؤه أيضاً مقلوباً. أما علامة فراء تيم – وهى تجارة كان لى دور فيها – فلم تكن تعنى الكثير لدى الناس. المعاطف والسترات والكوفيات التى كانت تحمل تلك العلامة كانت غير أنيقة وإن كانت صناعتها جيدة، كانت المعاطف تفتقر إلى الغرز المبتكرة، ولا يحلّيها مثلاً ذيل حيوان حقيقى.

انتهت التجارة، و انخفضت معدلات البيع، وقاد أبى السيارة بنفسه إلى وسط المدينة، ففى ذلك الوقت كان قد سرّح السائق من خدمته، ووقف أمام فتارين المحلات الكبيرة التى كانت تعرض معاطف من فراء السناجب، كانت معاطف أرخص كثيراً من تلك

الـتى كـان يصنعها بنفسه. المعاطف التى كانت تتطلّب فى ذلك الوقـت عـدداً كبـيراً من الحائكين كانت تُصنع فى *بلاد الأجور المنخفضـة*. وهـى كلمـة ظهـرت فـى تلك الفترة، بلاد مثل يوغوسلافيا واليونان.

كـان يقول، ما هذا الإهمال؟ انظر لهذا المعطف، لقد حاكوا الشـعر ببعضه، هذا واضح جداً، ثم أن الأشرطة مائلة ومعوّجة. كان يقف أمام الفترينة ويقول، لابد أن يقدم حائكو الفراء شكاوى، هذه منافسة غير شريفة. إنهم يقضون على هذه الحرفة. كان يقف وقـد تحول بالضبط إلى الشخص الذى لم يكن يريد أن يكونه أبداً، إلى نوع من الناس كان هو نفسه ينعته بكل احتقار بالطفيلى.

لو كان كارل هاينس هنا.

أخـى كـان يتمنى دائماً لو حصل على حذاء برقبة وأربطة، مـثل الأحذيـة الـتى كان الطيّارون يلبسونها فى ذلك الوقت، أو سائقو الدارجات البخارية أو جنود الصاعقة النازية. كان يدخر من مصروفه، حتى يستطيع أن يشترى حذاء مثل هذا. له صورة وهو يـرتدى زىّ شبيبة هتلر ومثل ذلك الحذاء، الذى يصل حتى بطن سـاقه. كـان يـريد السفر إلى أفريقيا. ولكن لم يكن أحد فى ذلك الوقـت يسـتطيع أن يخـتار انضمامه لقوات روميل. هكذا بكل بساطة.

اشـتريت أول "بنطلون" جينز لى وعمرى أربعة عشر عاماً،

بعد مجاهدة طويلة مع أبى سمح لى أخيراً وبعد شهور من الجدال بـأن أشترى أول جينز، ساندنى فى معركتى كل من أمى وماسا. ارتديـت الجيـنز وكنت أذهب إلى المدينة، والمشى بالجينز كان مشـياً مخـتلفاً، كان "أبطأ"، أكثر ارتخاء، تلك الطريقة فى المشى الـتى كان أبى لا يحبها، هو الذى كان يمتدح كثيراً طريقة قوات المشـاة. فى وسط المدينة كنت أذهب إلى بيت أمريكا، والذى كان فـى ذلك الوقت يقع على نهر الألستر. وهناك كانت تعرض أفلام وتسـتعار الكتب. مجلدات مصورّة. وهكذا تعرفت لأول مرة على الولايـات المـتحدة. صور عن الغابات وناطحات السحاب، عن البحـيرات والمـزارع والسـواحل، كانت بلداً يعدك بأبعاد غير مسـبوقة، بالمسـافات الشاسـعة. كانت الولايات المتحدة تقدم لى عالمـاً مضـاداً لعـالم الأطلال وضيقه الذى يعتصرك. بأعرافه ونظامه. قرأت همنجواى واشتريت لـ"بنطلون" الجينز قميصاً من القطـيفة. وكتاباً مغلفاً بقماش صناعى أحمر كتب عليه "يوميات". عـندما تفتح هذا الكتاب تجد بداخله كتابات بالحبر، إنها كتاباتى، خـط صـغير ومـربع يحاول أن يعبر باللغة عن أحلام اليقظة: قطعـان الجـاموس، الشلالات، الأشجار الضخمة. ثم هذه الكلمة: ناطحة سحاب.

كانـت أمنـية هذا الصبى الذى بدأ فى النمو أن يعيش هناك فـترة، أو حتى أن يهاجر إلى هناك. بلد تسطع فيه الشمس دائماً، هـذا ما عرفته فى بيت أمريكا، بلد تسيل فيه أنهار اللبن والعسل. كل شىء هناك كان يبدو عملياً وبسيطاً وقوياً. هذا ما يؤكده أيضاً القميصـان اللذان كانا فى صندوق المعونات. كان القميصان من

نوع جيد، امتدحته السيدة التى كانت تساعد أمى فى غسيل الثياب وكيّها. عراوى القميص كان لها أزرار، ولم تكن عراو مزدوجة لهـا أزرار خارجية تشتريها خصيصاً، عمل ممل كنت أنا أو أمى نؤديه بدلاً عن أبى.

أمى احتفظت بالعلبة الكرتون التى كانت بها المعونة، كرتون قـوى بشـكل خاص وفوقه مكتوب كلمة معونة. وفى هذه العلبة احتفظـت أمى بكرات شجرة عيد الميلاد والتى أنقذتها أختى أثناء قصـف المدينة فى عام ١٩٤٣. ولم تتقطع ألواح الكرتون إلا فيما بعد بسنوات، مع الفتح والغلق، حتى احترقت العلبة تماماً مع آخر حريق فى الشقة، فى عام ١٩٩٩.

لخـص والـداى الأحداث فى مقولة نمطية يرددانها: *ضربة القدر*، القدر الذى لا نملك السيطرة عليه بشكل شخصى. *فقد الابن والبيـت*، تلـك كانت الجمل التى تضمن الهروب من التفكير فى الأسـباب. سـاد الاعتقاد أن العذاب الذى لاقاه فى تلك الفترة هو تكفير عن اشتراكهم مع كل الألمان فى مسئوليتهم عما حدث. كل شـىء كان بشعاً، لأن كل منهم كان ضحية لقدر جماعى لا يملك أحـد أن يشرحه. كانت تلك قوى شيطانية تسود خارج التاريخ أو كانـت بـالفعل جزءاً من الطبيعة البشرية، فى كل الأحوال كانت تلـك القوى كارثية وحتمية. اتخذت قرارات كان الإنسان لا يملك حيالها إلا أن يستسلم لها، كما لا يملك سوى أن يشعر بأنها ظلمته.

كيف كان أخى يرى نفسه؟ ما المشاعر التى كانت تنتابه؟ هل

كان يدرك معنى الإجرام، الذنب، الظلم؟

فـــى كـــتاباته وخطاباته لم أجد سوى تساؤل واحد عن حقيقة أسطورة كتيبة العاصفة النازية، استقامة أعضائها وشجاعتهم، تلك الأســـطورة الـــتى انتشـــرت فيما بعد بين الرفاق، و رعاها أيضا الأهل فى البيت.

فـــى ٤٣/٧/٢٥ كتـــب أخى فى خطاب من أوكرانيا، بالقرب مـــن كونســـتانتينوفكا: *انتقلنا إلى مكان رائع، نظيف جداً ومنمق تمامـــاً مثل بيتنا، هنا فى الجنوب توجد فتيات جميلات شابات، لا تقلق، فأنا لا أفعل سوى الابتسام، أيه، أنا لا أبتسم قط فى وجه أى من....*

يـــبدو أن الـــناس هنا فى الجنوب لا يعلمون شيئاً عن قوات العاصـــفة. كلهم سعداء، يلوّحون لنا ويحضرون الفاكهة الخ،فحتى الآن ماتزال قوات الدفاع تتمركز فى المناطق السكنية فقط.

مع هذا الخطاب وضع أخى زهرتى قرنفل، مجففتين، مسحة من لون أوراق الورد التصقت بورق الخطاب، لون وردى رقيق. مـــنذ ستين عاماً والزهرتان بداخل الخطاب، زهرتان قادمتان من مـــنطقة يفـــرح فـــيها الناس عندما يرون الألمان، لأنهم حتى ذلك الوقـــت لـــم يعـــرفوا شيئاً عن قوات العاصفة النازية. ربما أهدته إحـــدى الفتـــيات الأوكرانيات الزهرتين، بالإضافة إلى هذه الجملة المضـــحكة، التى تشى بأنه يقوم بلعبة ما، أنه يخنق داخله رغبة: *أنا لا أبتسم قط فى وجه أى من...*

كـــان ممـــنوعاً علـــى جنود قوات العاصفة أن تكون لهم أية علاقـــة بنساء أو فتيات أوكرانيات، فعرق الأسياد لابد ألا يمتزج مع الشعب السلافى الأدنى.

فى يومياته كتب أخى: *نحن نقوم الآن بهدم كل مدفأة روسية ونستخدم الأحجار فى بناء الشوارع.*

يبدو أنهم كانوا ينتزعون أحجار المدافىء من البيوت الخشبية حـــتى يبنوا شوارع تصلح لأن تمر فوقها عربات النقل الضخمة. فهـــذه الجملـــة تتكرر فى يومياته: الانطلاق بالسيارة، ولكن بعد ٥٠٠ مـــتر كان علينا أن نعود أدراجنا. العربات لا يمكن أن تتقدم فـــي الوحـــل. كان علينا كل ١٠٠ متر أن نترجل ونزيح الوحل جانباً، والوضع يزداد صعوبة فى الشوارع.

هـــدم المدافـــيء كان يعنى أيضاً هدم البيوت. ماذا قال الناس آنـــذاك؟ هـــل بكـــوا؟ هل حاولوا يائسين الشرح للألمان أن هدم المدافىء شىء بشع، خاصة وأن الشتاء على الأبواب؟

ســـجّل أخى كل ذلك، دون أن يرى للحظة واحدة علاقة بين البـــيوت المُدمّرة فى أوكرانيا وبين البيوت التى دُمّرت بالقنابل فى هامـــبورج....قلـــق أنا فقط من بقائكم بالبيت، فيومياً تُبثُّ الأخبار عن الهجمات المنتظمة بالطائرات الإنجليزية. لو أن الساكسونيين يـــتخلّون عن كل تلك الأفعال "الزفت"، هذه ليست حرباً، هذا قتل للنساء والأطفال، وهذا ليس إنسانياً بالمرة.

يصـــعب علـــىّ أن أفهـــم ولا أستطيع أن أشعر كيف يمكن

للإنســـان أن يلغـــى إحساسه بالشفقة والتعاطف فى مواجهة أناس آخريـــن يـــتعذبون، كيف يمكن أن تفصل بين الإنسانى هناك فى الوطن، والإنسانى هنا فى روسيا. قتل المدنيين هنا هو حياة يومية عادية، لا تستأهل حتى أن تذكر، ولكن قتل المدنيين هناك جريمة.

عندما كتب هذا، كان يبلغ من العمر التاسعة عشرة وشهرين اثنيـــن، وكـــان أمامه شهران قبل أن يموت. كان قد أكمل دراسته المهنـــية. واشـــترك فـــى اتحاد الشبيبة ثم فى شبيبة هتلر. ألعاب ميدانـــية، تدريبات على إطلاق النار، مارشات عسكرية ليلية. كل ذلـــك *صقله*. فى سن الثامنة عشرة اشترك فى الخدمة المدنية وتم تجنـــيده فى خريف ١٩٤٢ فى منطقة قبل ستالينجراد، ليشترك فى رصف الشوارع، ثم اشترك فى تدريبات سلاح النازى فى فرنسا، حيث صقل هناك مرة أخرى. وفى يناير من عام ١٩٤٢ تم تجنيده فى روسيا.

كـــان يود بشدة لو اشترك فى دورة لتعلم الرقص، هكذا قالت أخـــتى. ولكـــن لـــم يكن لديه وقت كاف، وكان يود أيضاً لو تعلّم الطيران الشراعى، كانت تلك أكبر أمنياته – الطيران.

ذكر فى إحدى يومياته مرة طعاماً معيناً.

٩/٧

النوم فى القرية، نتوجّه صباحاً إلى الجبهة حيث سنكون على أهبة الاستعداد. من الساعة ٦ إلى ٨ الإعداد الآرى.

فى الثامنة بدأ الهجوم.

نـــار القـــنابل رائعـــة. جُرح كل من روش وهرتسفيلد. ننقل

الجرحى فى عربة دورية الاستطلاع إلى الموقع.

نـــتوجه فى العصر لنزع الألغام، علينا أن نقوم بنزع الألغام مـــن أمام المدرعات. الروس يطلقون النار بشدة. مدرعاتنا تطلق الـــنار من فوق رؤوسنا. أصيب كل من أوشا (نائب قائد الكتيبة) وفاجـــنر إصابة بالغة. ستة جنود يقومون بنزع ٥٩ لغماً – نعود مع جرحانا.

انفجرت قنبلة بجانب عربة دورية الاستطلاع. أصيب كل من شفارتس وأنا – فى موقع علاج المصابين، وتربط جروحنا، ننقل أنـــا وهـــو إلى مركز التموين والإمداد – نقضى ليلتنا فى معسكر مبيـــت الجنود – ونأكل فى موقع علاج الإصابات الرئيسى خبزاً بالمربى.

أثـــناء ذلك كنت قد قرأت يومياتٍ وخطابات أخرى، يوميات تعـــى وتدرك عذابات المدنيين وتعبّر عن الاستياء من كل ذلك ، ويومـــيات أخـــرى تخبر عن قتل المدنيين، اليهود والروس، اللغة التى تصف القتل، لغة تعلمها حديثا، لغة تجعل القتل سهلاً: الناس مـــن الطبقة الأدنى؛ الطفيليون، الحشرات، الذين يحيون حياة قذرة ومـــنحطّة وأقرب إلى حياة الحيوانات. إحراق أولئك الناس إجراء مـــن أجل الحفاظ على الصحة العامة للبشرية.فى مذكرات أخى لا تجـــد أى تـــبرير للقتل بشكل صريح، لا تجد أية أيديولوجية كتلك الـــتى كانت تقرأ أمام التلاميذ فى حصص فلسفة قوات العاصفة،. تجد فقط النظرة العادية التى ينظر بها الإنسان إلى الحرب.

مـــا يكتبه لأمى، ما يكتبه لأبى وما يسجّله فى يومياته: يكتب للاثنيـــن عن المعارك، ولكن بشكل مختلف. الاثنان؛ الأب والابن كانـــا قـــد اتفقا ألا يكتبا لأمى شيئاً عن تجنيده فى الجبهة، أى أن *يشفقا عليها من القلق.*

خطـــاب إلـــى أمى فى ١٩٤٣/٧/٢٢: إنه لشيء محزن ألا نقـــاتل أبدا فى الجبهة، فهكذا لن نحصل على أية أوسمة وسينظر إلينا الآخرون كأننا شباب مدلل.

ولكـــنك تعرفيـــن أننى لا أسعى إلى التجنيد فى الجبهة، أهم شيء بالنسبة لى أن أعود سليماً إلى البيت.

فى ذلك الوقت كان قد ذهب منذ شهور إلى الجبهة، واشترك فـــى استعادة مدينة شاركوف وفى معركة كورسك فى يوليو، تلك المعـــركة الـــتى كتب عنها فى يومياته قبل أربعة عشر يوماً من إرســـاله هذا الخطاب إلى أمي، كتب بشكل سريع، يظهر جلياً فى خطه أنه كان إما فى مدرّعة أو فى عربة نقل أو فى أحد الخنادق أو فى مكان مبيت الجنود. كل شيء كان مكتوباً بالقلم الرصاص، ذلك القلم الذى مايزال حتى الآن موجوداً فى العلبة الصغيرة التى تحـــوى حاجـــياته. فى بعض الأحيان يرتكب أخطاء نحوية، تبدو الجمل مشوّهة ومقطّعة، لا تتبين فيها أية علامات وقف تشير إلى نهاية أو بداية الجملة والخطوط مائعة.

٧/٥

٠,٣٠ الـــتوجه إلـــى حجرة الاستعداد. ٣-٤ ساعات تدريب علـــى قذائـــف الآرى والـــدّى. فـــى تمام الساعة الرابعة هجوم

بالطائـــرات على مواقع كتائب الجماجم ، يرقد سولو كريدر متعباً فـــوق قـــبور المدرعات المقصوفة وفوق قبور الروس، المخابئ تحت الأرض على عمق طبقتين. تمر المدرّعات وسط البحيرات. الفهود تختبىء، لا شىء تأكله، تحمل المدرعات بعيداً عن الجسر بعد إصلاحه، السلاسل كُسرت تماماً. قضاء الليل فى طريق هبوط الطائرات كرسك-بيكورد.

٧/٦

الـــتوجّه إلى مكان الهجود الجديد. التقدّم مستحيل. فى الساعة الـــرابعة تهـــاجم ٧٣ مدرعة روسية وإنجليزية عربة تنجر ميشل تصـــاب من إحدى المدرعات وتنفجر فى الهواء. تختفى تماماً عن الأنظـــار علـــى بعـــد ٤٠٠ متر تتناثر أجزاء الموتور وعجلات المدرعـــات، عربتنا يحترق فيها كل شىء الكل يقفز خارج العربة نظـــل أنـــا وبـــرج يانكه بالداخل. أنا أقذف بكل ما يحترق خارج العـــربة الـــتى أقودهـــا بسرعة شديدة خارجاً من وسط بحر النار الروسى. قلهلم (ميت) وأصيب كرد كلويفر.

٧/٧

مازلنا فى وضع الاستعداد. مدرعاتنا لا تأتى إلى هنا بل تتجه يميناً إلى حيث الهجمات.

٧/٨

نعـــود إلـــى كومـــب. صـــدمة كبيرة. سرعان ما نعود إلى المدرعة ر. نتوه فوق ممر الهبوط ونقضى الليل هناك.

٧/٩

الوصول إلى مدرعة دى كوب، بعد ساعتين التوجّه إلى مكان

الاستعداد الجديد. نقضى الليل فى الغابة. الطائرات كثيرة، الضجة كبيرة للغاية.

٧/١٠

عدم الذهاب إلى الجبهة. فى الغابة. الطعام جيد.

٧/١١

ننتظر أثناء النهار. أتولى نوبة الحراسة. نبدأ العودة. الوصول غداً إلى مكان الاستعداد.

٧/١٢

الترجل من العربات. تقطيع الخشب، حتى تستطيع المدرعات المرور. مساء فى الخندق.

٧/١٣

فى الخندق الموسع

قذائف الآرى على ارتفاع مترين فقط من الخندق. ظهراً تمر القذائف من فوق رؤوسنا. علينا أن نعود أدراجنا، غلبناهم. أصيب كل من كريل وياوخ وفُقدا.

قذائف الأرى والإم جى بكثرة الروسى يطلق علينا النيران أنا وشفارتس كونيج و راينكه استطعنا المرور.

فى الساعة أنا وليمكه فى المقدمة لإحضار كريل وياوخ. طلقة أصابت الخوذة. طلقة أم جى. لا نستطيع، علينا أن نعود. نمنا ليلاً جيداً جداً.

كانت تلك الأحداث هى محور معركة كروسك، حيث تم

إرسال الثلاث كتائب التى يطلق عليها كتائب الصفوة، كتائب قوات العاصفة: كتيبة الرايخ وكتيبة اللايبشتندارد وكتيبة الجماجم، يزعم أبى أن تلك المعركة كانت نقطة التحول فى الحرب، وليست معركة ستالينجراد ــ تماماً كما قال المؤرخون بعد ذلك.

أبى كان يقرأ الكتب التاريخية ومذكرات الضباط الكبار وضباط السلاح الجوي، وقد طُبعت كلها فى الخمسينيات. قرأ كتاب جنرال جالاند: الأوائل والأواخر – طائرات القنص فى الحرب العالمية الثانية. وكتاب جنرال قائد كتيبة المدرعات جودريان: ذكريات جندى. كما قرأ أيضا أهم عمل، "انتصارات مهزومة" للجنرال فون مانشتاين، الذى حاول فى كتابه الواقع فى ٦٦٤ صفحة أن يثبت، أن قادة الجيش، وخاصة هو، كان يمكن أن يعالجوا كل تلك المعارك بشكل ناجح جداً، لو لم يكن هتلر هو القائد، هتلر الذى لم يكن سوى عريف فى الجيش. وقد تناول فون مانشتاين معركة كروسك بالتحليل المفصل.

بدأ الهجوم الألمانى فى الخامس من شهر يوليو من عام ١٩٤٣ بقوات قوامها ٩٠٠٠٠٠ جندى ألمانى، و١٠٠٠٠ مدفع و١٠٢٦ مدرعة و١٨٣٠ طائرة. فى مواجهة تلك القوات كان الجيش الأحمر يتكون من مليون وثلاثمائة ألف جندى و٢٠٣٠٠ مدفع و٣٦٠٠ مدرعة و٢٦٠٠ طائرة. فى العاشر من يوليو قيل: فى جنوب كورسك اندفعت كرات من المدرعات لتصطدم بعضها ببعض. فى المساء اكتست ساحة المعركة بمئات من العربات الحربية من الجيشين. ولكن كان سهلاً أن تتبين أياً من القوات بدأ بالهجوم. فى الثالث عشر من يوليو كتب أخى فى مذكراته: لا

فـــائدة. لابد أن ننسحب. فى اليوم نفسه اجتمع هتلر مع قائد قوات الجـــيش الأوسط والقائد فون مانشتاين قائد قوات الجيش الجنوبى. كـــان رأى فون كلوجه أن يتوقف عن القتال، وكان فون مانشتاين يـــرى أن يكمـــل المعـــركة. وقد برر مانشتاين رأيه بأن القوات الروســـية تكـــبدت فى آخر معركة خسائر فادحة. فقد قدرت تلك الخســـائر ب ٧٠٠٠٠ جـــندى، من بينهم ١٧٠٠٠ قتيل. وأحصى عـــدد الأســـرى فقدر ب٣٤٠٠٠ أسير حرب و٦٥٤٧ هارباً. أما القـــوات الهجومـــية الألمانـــية فكان لديها ٣٣٠٠٠ أسير و٧٤٢٠ جريحاً. ذلك الرقم الذى ارتفع بعد ذلك ليصبح ٢٠٧٢٠ جريحاً.

اخـــتار هـــتلر حلاً وسطاً، فقد سمح لفون كلوجه بالانسحاب وســـمح لفـــون مانشتاين بمتابعة الهجوم. ومع ذلك فقد قرر فون مانشتاين فى كتابه أن هتلر هو المسئول فى النهاية عن الهزيمة.

من وجهة نظرنا اليوم، أى بعد انتهاء الحرب وبعد أن عرف العـــالم معامل الخطة المنظمة لإبادة اليهود، يصعب أن نفهم كيف يمكـــن أن تثار تلك المناقشات الجادة العديدة حول كيفية الانتصار فى الحرب.

فى بيتنا تدور المناقشات عندما يجتمع بعض من شاركوا فى الحـــرب، أولـــئك الذين يدّعون معرفتهم بالحرب بشكل أفضل من غـــيرهم، فيتكلمون مرة بعد أخرى عن نقطة التحول فى الحرب: القـــرار الخاطئ من هتلر وجورينج وقائد القوات المتحاربة كايل والتحول فى الاستراتيجية. فقد تقرر فجأة أن يهاجم السلاح الجوى أهدافاً مدنية، أى أن يهاجم مدن لندن وبريستول وسوانسى بدلاً من

متابعة ضرب المطارات ومصانع الطائرات مما مكّن السلاح الجوى المهاجم فيما بعد من الهجوم على المدن الألمانية ثم الانتصار. ودائماً معركة دانكرك وكم الشائعات التى ارتبطت بها عن نظرية التآمر المعادية للسامية. لماذا أوقف هتلر جيش المدرعات الثانى عشر أمام دانكرك ولم يسمح بتقدّمه؟ لقد أدى ذلك إلى تمكّن القوات البريطانية الاستكشافية وقوامها ٢٠٠٠٠٠ جندى من الهروب خارج انجلترا. ثم حدث ذلك الخطأ القاتل، الهجوم على الاتحاد السوفيتى، وقد بدأ فى ٢١ يونيو من عام ١٩٤١، لأن الجيش الألمانى هاجم قبل ذلك يوغوسلافيا وتمكّن من احتلالها. وهكذا ضاعت على القوات الألمانية خمسة أسابيع. كانت القوات واقفة بالفعل أمام أبواب موسكو عندما بدأ الشتاء إلى نهاية الحدوتة. أوسمة اللحم المتجمد، منشار هتلر، رصاصة الوطن.Gefrierfleisch, Hitlersaege, Heimatschuss كل ذلك كان كلمات صاحبتنى فى طفولتى وعكست التوحش والكبت الذى حدث للغة.

عن الحرب أيضاً، أوردت الصحف والمجلات المحلية وكتيبات المكتبات قصصاً عن تجارب ذاتية. فمثلاً كان جنود كتيبة الجماجم يقصون: *المدرعات الروسية كان عليها أن تحمل ديناميت فوق متنها، وإلاّ كيف تشرح تلك التفجيرات المروعة. عجلات العربات التى تزن أطناناً تقفز فى الهواء لمسافات طويلة. كان يمكن أن نستفيد من تلك الهجمات المفاجئة تماماً بالنسبة لنا. المتقدمون أمامنا كانوا يعانون من خسائر فادحة. كانوا قد استطاعوا أن يفجّروا المدرعات ويحطموها. ولم يكن هناك أىّ*

ســـاتر يقى من شظايا المدرعات المتكسرة والمتطايرة هنا وهناك. بعض المتقدمين أمامنا قتلتهم أمام أعيننا قطع الحديد المتطايرة.

مغامـــرات الحـــرب. الجندية كانت عبارة عن شركة سياحة. اســـتباق ومـــرحلة أولـــى لسياحة مجتمعات الوفرة. حتى الجندى العادى من سفلة القوم عاد كأنه منتصر، كأنه سيد، وهذا الذى كان يقصّه عما حدث هناك، كان يؤكد تلك الرغبة التى كانت المحرّك المعـــنوى لحـــروب الاحتلال تلك، الرغبة أن يوسّع الإنسان من مداركـــه، أن يثرى من تجاربه. سلمون مدخن من النرويج، الزبد الجـــيد مـــن الدانمرك، ثم – *طبعاً* – فرنسا: الجوارب الحريرية، الطوفـــى، النبـــيذ، الشـــمبانيا. *قد يكونون جنوداً متخاذلين، ولكن طريقتهم فى الحياة، كانت يا سلام. والنساء؟ رائعات.*

وشرق أوربا؟ شرق أوربا كان بعيداً. قمح، مواد خام وفيرة، كـــل شـــىء وفير وضخم. براغيث، طرق وعرة، الناس طيبون وحســـنو النية. لا وجودَ لأىّ نظام. استراق النظر ذات مرة داخل كـــوخ فـــلاح روســـى. شىء لا يصدق. شرق أوربا، كان مكاناً للحـــياة، مكانـــاً ليحيا فيه جنود النازى الذين أبلوا بلاء حسناً فى الحـــرب، والذيـــن سيصـــبحون أصـــحاب كل تلك الأراضى فى المســـتقبل. بـــيوت الفلاحيـــن الجميلة المبنية على طراز البيوت الأوربـــية القديمـــة كان المسئولون عن المستوطنات قد أدرجوها بـــالفعل فـــى خطة توزيع. كان من الممكن رؤية النماذج المختلفة للمـــزارع. ولكن البلاد التى سيستوطن فيها الجنود الألمان كانت مســـكونة بـــالفعل بملايـــن من الروس والبولنديين والأوكرانيين

واليهود. ولكن حتى هذه المشكلة كان لها حل: *ترحيل البشر الذين ينتمون إلى الدرجة الأدنى من السلافيين إلى أماكن أخرى، والحل النهائى لمشكلة اليهود.* الحل النهائى: كلمة ستظل منبوذة دائماً. كما أنها برهان دائم على أن اللغة الألمانية قد فقدت إلى الأبد براءتها. تلك الكلمة مثلها مثل كل الاختصارات، بعضها ظل علامة مميزة للغة الألمانية وستظل دائما اختصارات لا يمكن نسيانها: SS, SD,SA وبعض الاختصارات أصبحت الآن موجودة فقط فى بعض المعاجم المتخصصة: RFSS, OBH, RSHA- اختصارات تظلم الكلمات، ظلت طاغية على اللغة حتى بعد الحرب بوقت طويل. إنها لغة الجيش، تشوهات اللغة، وفى مقابلها التشوهات البدنية: من يعرج ومن يمشى مستنداً إلى عكازين ومن له- بدلاً من ذراع - إبرة طويلة داخل كم السترة الخالى، أرجل البنطلون الخالية والملتفة الواحدة فوق الأخرى، الأطراف الصناعية وصوتها الذى يصرخ إذا احتك بشىء.

كان أبى فى السلاح الجوى. وكان يحكى عنه وعن طلعاته الجوية الاستكشافية فوق فنلندا وروسيا. لم يكن للسلاح الجوى أى دخل بقتل اليهود، كان هذا ما يقوله. كان ذلك السلاح يقاتل فقط، وبكل بسالة. ومع ذلك ، فقد ساهم كل فرد من الجنود البواسل المستقيمين فى القتل الجماعى ، فقد ساعدوا الآخرين عليه، كانت تلك المقولة من قبل تفجّر نزاعاً دائماً. *لم نكن نعرف شيئاً عن كل ذلك القتل. السلاح الجوى كان سلاحاً مستقيماً، البحرية كانت سلاحاً مستقيماً، الجيش كان مستقيماً. قوات الصاعقة كانت مستقيمة.*

خوفـــى وأنـــا أبحث فى أوراق أخى أن تكون وحدته، قوات النازى المدرعة رقم بتل ٣ مقد اشتركت وهو معها بالتالى فى قتل المدنيين رميا بالرصاص، اليهود والأسرى.

ولكـــن لـــم يكـــن ذلك صحيحاً، هذا ما وجدته. وجدت فقط مدونات عن يوميات حرب عادية، *على بعد ٧٥ متراً يدخن ايفان سيجارة، فريسة لبندقيتى.*

قـــوات الصـــاعقة كانت ترتدى الزىّ نفسه الذى كان يرتديه حراس المعتقلات.

جـــيل الآبـــاء، جـــيل المذنبين، كان يعيش على الحكايات أو الصـــمت. فقط هذا أو ذاك: إما أن تظل تحكى عن الحرب أو أن تصمت تماماً. كل طبقاً لذكرياته وإلى أى مدى يستشعرها محزنة أو مدمرة.

النســـاء والعجائز كانوا يقصون عن الليالى التى انهمرت فيها القنابل فوق رؤوسهم فى الوطن. الخوف والحزن تفككا مع الحكى عـــن تلـــك التفاصـــيل، تفككـــا غالباً أثناء التجمعات المريحة فى حكايـــات قصـــيرة، وفى حالات نادرة كانت تلك الأقاصيص تثير مشاعر الصدمة والحزن.

ذات مـــرة رأيـــت أبى واقفاً أمام نار المدفأة ويداه معقودتان خلـــف ظهره، منتصباً أمام الدفء، وكان يبكى. لم يحدث أبداً أن رأيـــته من قبل يبكى. الصبى لا يبكى أبداً. لم يكن بكاؤه فقط من أجـــل ابـــنه الميت، ولكن بسبب شىء لا يمكن التعبير عنه باللغة، شـــيء يتحلل فقط فى الدموع. عندما كان واقفاً هناك ويبكى، كان

بعـض من ذكرياته المرعبة حاضراً، كان يائساً حتى النخاع، لم يكـن بكاؤه بسبب رثائه لذاته ولكنه عذاب لا يمكن أن يقال، وعن أسئلتى كان يجيب فقط بهز رأسه مرة بعد المرة.

مـا الصور التى أثارت كربه؟ ربما ما رآه ذات مرة فى أحد معسـكرات الأسـرى الروس مثالاً للشيء المريع والمفزع، وقد قصـه علينا بعد ذلك، لأنه كان مايزال في إطار إمكانية صياغته فـى كلمـات: قص كيف أنّ أسيراً روسياً حاول أن يهرب فأطلق علـيه أحـد الحـراس الرصاص الذى أطاح بقشرة رأسه، فاندفع الأسـرى الآخرون إلى القتيل ليأكلوا مخه *الذى كان مازال ساخنا ينطلق منه البخار*. للحظـة مفزعة انتابنى الشك أنه كان هو الحـارس الذى أطلق الرصاص، ولكننى طمأنت نفسى بعد ذلك، لأن رتبته العسكرية كانت أعلى من أن يكون مجرد حارس.

قـرأت فى تلك الأثناء عندما كنت أحاول أن أكتب عن أخى، كـتابا لكريسـتوفر براوننج "رجال عاديون تماماً". قوات البوليس الاحتياطـية رقم ١٠١ ومشاركتها فى الحل النهائى." أتى براوننج بالوثـائق الـتى أدرجـت فـى ملفـات القضايا للرجال الذين تم استجوابهم آنذاك، والذين كانوا مايزالون على قيد الحياة عندما بدأ التحقـيق وأكد أن قوات البوليس كان يمكن أن تعترض وترفض تنفـيذ الأمر بإطلاق الرصاص على المدنيين من اليهود والأطفال والـرجال والنسـاء، بدون معاقبتهم. بعضهم رفض بالفعل تنفيذ الأمـر. فقد تقدم اثنا عشر حارسا من تلك القوات وسلموا أسلحتهم

وتم تكليفهم بمهام أخرى.

الآخرون – أى الأغلبية بل الأفضل أن نقول معظم القوات – الذين لم يتقدموا ليقولوا لا وأطاعوا وقتلوا، عذبهم ضميرهم للحظات قصيرة، ثم أخذوا يقتلون المرة بعد المرة وفى كل مرة بلا مبالاة أكثر، ببديهية أكثر، بآلية أكثر – إنه وصف لأفعال لا نقرؤها إلا إذا أرغمنا أنفسنا على ذلك – شىء غير قابل للتصديق.

من يوليو ١٩٤٢ وحتى نوفمبر ١٩٤٣ قتلت القوات الاحتياطية للبوليس رقم ١٠١ثمانية وثلاثين ألف يهودى، وأبلغوا بإتمام تنفيذ الأمر.

فى عام ١٩٦٧ تم تقديم أربعة عشر جندياً من تلك القوات إلى المحاكمة فى هامبورج. حُكم على ثلاثة ضباط كبار بالسجن ثمانية سنوات، واثنين من رتبة أقل بالسجن لمدة خمس وست سنوات. وقضى ببراءة الآخرين. لم يظهر على أىّ من المتهمين وقتها أنهم واعون بمدى الظلم الذى قاموا بتنفيذه، كلهم استندوا فى دفاعهم إلى ضرورة احترام الأوامر وضرورة الطاعة. فيما بعد خففت تلك العقوبات كثيراً.

فى أحد الأوامر العسكرية الصادرة فى العشرين من نوفمبر من عام ١٩٤١ كتب الجنرال فون مانشتاين إلى كل القوات والكتائب يقول: لابد أن يباد النظام اليهودى البلشفى الآن وإلى الأبد. *لا يمكن أن نسمح أبداً لهذا النظام أن يتغلغل فى أىّ مكان*

مـن بلادنا الأوربية. أصبح الجنرال فون مانشتاين فيما بعد قائداً عاماً لقوات الجيش الجنوبى الذى خدم فيه أخى.

كان الجنرال فون مانشتاين الرأس المدبرلبناء الجيش الألمانى فقـد كان مستشاراً عاماً للجيش. وقد ادّعى فى كتابه "انتصارات مفقـودة" أن هـتلر قـام بأخطاء فادحة فى قيادته للجيش، وشرح وجهـة نظره مستعيناً بخططه هو الشخصية ومفاهيمه وقراراته، ورغم ذلك لم يذكر أبداً أنه قد أصدر ذات يوم ذلك الأمر: *"لابد أن يباد النظام اليهودى البلشفى الآن وإلى الأبد".*

لـم يذكر أخى شيئاً عن الأسرى فى يومياته أو فى خطاباته. هل كانوا غير مهمين لدرجة أنه لا يكتب عنهم كلمة واحدة؟

وجـدت الـيوم مسدساً من نوع راندوم، سآخذه معى عندما أعود إلى البيت، كنت أحلم دائماً بأن يكون لدىّ مثل هذا المسدس، إنـه مسـدس بتأمين ثلاثى ويمكن الضغط على الزناد بكلية اليد، شىء رائع، ووجدت معه أيضاً جراباً بنى اللون كأنه جديد تماماً، الآن لـدىّ مسدسـان، واحـد ١,٠٨ وهذا الراندوم. مسدسان من أسلحة الجيش البولندي.

لـدىّ ما يكفى من الذخيرة لهذا المسدس الأخير، فطلقاته هى طلقـات المسـدس ١,٠٨ نفسـها. لابـد أن ترينى وأنا أطلق به الرصـاص. إنه أفضل كثيراً من البندقية، فيمكننى مثلاً أن أصيب بـه الكـرات الصـغيرة فوق أعمدة التليفون وأوقعها واحدة بعد الأخرى.

والآن ، يا أمى العزيزة علىّ أن أنهى هذا الخطاب ، واكتبى

لى.

يكتب بريمو ليفى فى كتابه "المنتهون والناجون" أن الأسرى كانوا لا يتلقون أية أخبار من أقاربهم وأصدقائهم، وكان هذا بشعاً، ولكن بالنسبة للأسرى من اليهود فقد كانت الرسائل أمراً غير وارد من الأصل. فإما كان الأقارب فى معسكرات اعتقال أخرى أو كانوا قد قُتلوا. يكتب بريمو ليفى عن هذا الصمت المطبق، عن كون المرء متروكاً ومنسيا هكذا، فأصبح الأسرى مستباحين لكل تلك المهانات من جوع ومرض وعطش وفقدان التضامن بينهم. الإحساس العميق بأنك وحدك تماماً، الإحساس النابع من معرفتك أنه ليس ثمة من يتذكرك.

والآن يا أمى العزيزة علىّ أن أنهى هذا الخطاب، اكتبى لى.

كان معظم الناس تقريباً يصمتون أو يتجاهلون الأمر عندما كانت قوات النازى تقبض على جيرانهم من اليهود ليختفوا بعد ذلك إلى الأبد، ولكن معظم الناس لم يقولوا شيئاً عن هذا حتى بعد الحرب، حتى بعدما عرف الجميع أين كان الأسرى يختفون.

ويرى بريمو ليفى أن هذا الصمت هو الذنب الأكبر للشعب الألمانى. هذا الصمت القاتل كان أكثر بشاعة من تلك الخطب الرنانة الطويلة لأولئك الذين كانوا يدعون دائماً وأبداً أنهم لم يعرفوا شيئاً عن كل ذلك. فأولئك كان الشباب يرفض الاستماع لهم – أتذكرهم بوضوح ودقة، عندما كانوا يبدأون – تحت ضغط الرغبة فى التماس الأعذار للذات وبدون أن يسألهم أحد– فى ذكر

الأسباب واحداً بعد الآخر، التى جعلتهم لا يعرفون شيئاً عن كل ما يجـرى. ففـى النهاية كانوا أناسا تحرّك ضميرهم، وأنذرهم، لابد ولأنكم كنتم تعرفون أىَ شىء.

لـم يكن ذلك الجيل مهاناً فقط ولكنه كان جيلاً مريضاً أيضاً، كان جيلاً حاول أن يكبت جراحه فى مرحلة إعادة البناء الصاخبة. وحلـت الأنمـاط محل الأفعال المريعة: هتلر، المجرم. اللغة، لم يسىء المجرمون فقط استخدام اللغة ولكن أساءوا استخدامها أيضاً قـبل كـل الذين كانوا يقولون عن أنفسهم: *لقد نجونا مرة أخرى.* وهكذا كانوا يختلسون لأنفسهم دور الضحية.

أول مـرة أرى فيها أبى سكران كان أثناء رحلة قمنا بها إلى حدائـق لونـبورج. كانت رابطة صانعى الفراء تذهب فى رحلة جماعـية كـل ربـيع، عـندما يزهـر أول نبات شبارجل، إلى سـودرموله. تبسـط المائدة ويقدم الطعام، طعام كثير، كثير جداً، شـبارجل وبطـاطس ومـرتدلا ونبيذ أبيض أو أحمر، من أنواع مخـتلفة. قـدم الطعـام فـى حديقة المطعم، كان يوماً من الأيام المشمسة الدافئة، تتخلله هبات من رياح بحر البلطيق تأتى ببرودة شـتوية. أمى أحضرت معها شالاً من الفراء. أبى، الذى كان فى ذلـك الوقـت رئيساً لإحدى لجان الطائفة، كان يجلس على رأس المـائدة ويـتحدث مـع زملائه الذين التفوا حوله زوجاتهم. كان الضحك كثيراً، وهو أيضاً كان يضحك بصوت عال، بصوت عال إلـى درجـة ملفتة للنظر. ساد جو كان الطفل يحبُه كثيراً. فقد بدا كأن الكبار قد نسوا سلطتهم. وهو كان مزاجه رائقاً بشكل خاص،

كما قال عن نفسه فيما بعد فى السيارة. ماسا قاد سيارتنا، فمن بين الضـــيوف دُعىَ أيضا بعض تجار الدخان الذين طلب منهم أبى أن يمدوا مهلة إعادة القرض الذى اقترضه منهم، وكان لابد أن يريهم أن العجلة تدور جيداً. *العجلة تدور.*

تكـــررت تلـــك الحالة من المزاج الرائق كثيراً فيما بعد، ثم أصـــبح مـــع الوقت أكثر هدوءاً وصمتاً، وفى النهاية كان الخرس يصـــيبه عندما يشرب. كان يذهب فى العصر إلى إحدى الحانات التى يتجمَّع فيها أيضاً بعض معارفه وأصدقائه. كان يشرب معهم كوبـــاً مـــن البيرة أو كأساً من النبيذ، هكذا كان يقول لنا، ولكنها كانت فى الواقع أكواباً من البيرة وكؤوساً من النبيذ، وفيما بعد بين عـــام ١٩٥٧ و١٩٥٨ أضـــاف أبـــى الكحـــول الخالص إلى تلك المشـــروبات، فـــبدأ يشـــرب الكونياك. كانت همومه بالتأكيد أحد الأســـباب التى دفعته إلى الشراب، تلك الهموم التى كسرته. فكساد الـــتجارة، وتزايد الديون، كانا أكثر مما يحتمل. والسيد كوته الذى كـــان يعمل لدى أبى كانت تنقصه المعارف اللازمة والمهارة من أجل أن يصنع معاطف الفراء الجديدة التى تطلبها المترددات على المحل، وكانت تلك المهارة تنقص والدى من البداية. كان الشعور بفقـــد كارلمـــان كبيراً، ليس فقط لأنه كان خبيراً فى صنع الفراء، ولكـــنه كان يفتقده كسند، ذلك الصبى الذى لم يكن فقط ابنه، وإنما أيضـــاً صـــديقه ورفـــيقه، كان يفتقد شخصاً يستطيع أن يحقق كل رغباته ويظل مع ذلك متعلقاً به بكل الاحترام والحب، هكذا بقيت صورة الابن الأكبر إلى الأبد فى ذاكرة أبى.

الخبرة. مايزال الابن الأصغر، أنا، يفتقر إلى الخبرة اللازمة لإدارة التجارة، ففى عام ١٩٥٦ كنت ما أزال فى السنة الثانية من التدريب المهنى. ومع ذلك فقد استطعت أن ألاحظ فشل أبى وعدم قدرتـــه على إدارة التجارة. وهذا ما كان أخى سيلاحظه أيضاً، إلا أنه كان سينظر إلى كل ذلك من وجهة نظر أخرى، وبالتالى كان سيفســر كــل هذا بشكل مختلف، نظرته كانت نظرة من عاصر الحرب، وعانى ضرب القنابل والأسر، والبداية من جديد، نظرته كانت النظرة السائدة في تلك الأوقات.

غياب أخى تحديداً ساعد أبى أن يظل معجباً به، ساعده غيابه على أن يظل محتفظاً بالصورة التى كانت لديه عن نفسه. لم يكن أبى وحده من فشل، وإنما فشل معه أيضاً نسق القيم الجماعى. وقد شــارك هــو نفســه ، مثله مثل كثيرين – بل مثل معظم الناس، باستثناء قلة قليلة تمردت على النازى – فى تدمير تلك القيم. ورد الفعــل علــى فشل تلك القيم كان إما العناد أو الكبت. أسئلة ملحة كثــيرة جرّدها أبى من قوتها بسبب عناده أو كبته لها: أنت ليست لديــك أدنــى فكــرة، أنت لم تعاصر كل ذلك. ولكن هذا عاصره أخى، عانى أخى من كل شىء، ضحّى أخى بنفسه.

لابــد وأن يعيش المرء التجربة، ثم يحوّلها إلى مطلق، وتلك كانــت استراتيجية تعمل ضده، فأنا كنت أكتسب من عام إلى آخر مهــارة أكــبر فى كل المسائل الخاصة بحرفة صنع الفراء، حتى أننى كنت أضحك إذا ما أراد أبى أن يشرح لى كيفية التغلب على إحــدى مشاكل تجهيز معطف من الفراء. نعم، كنت أضحك فعلاً.

وطـبعاً كان هو يدرك مدى عجزه، مما كان يزيد من رغبته فى التسلط أكثر فأكثر. وكان غالباً يخلط السياسة بالحرفة بشكل معقد. كـان أهم شيء لديه أن يكون على حق. كنا نتشاجر بصوت عالٍ يزداد ارتفاعاً فى كل مرة، وفى النهاية كنا نصرخ. أحدنا فى وجه الآخـر. كنت أعود عصراً من الشركة التى أتدرّب فيها – شركة استطاعت أن تصبح من أكبر مصانع معاطف الفراء حينما تمكن أصـحابها مـن شـراء محلات الفراء من أصحابها النازيين بعد الحـرب بأسعار زهيدة – كنت أعود إلى محل أبى وألمحه مطلاً مـن فوق الحائط الذى بنيناه فى المحل إلى الخارج منتظراً قدوم زبائـن، تلـك كانت صورة من أوضح الصور التى احتفظت بها ذاكـرتى. عندما كانت تتوقف إحدى السيدات المارات أمام المحل أمام الفاترينة كان أبى يتراجع ببطء حتى لا يلحظه أحد.

فـى نهاية الخمسينيات هرب أبى من انتظاره فى المحل وبدأ يتركه لفترات أطول ليشرب القهوة وعدة كؤوس من الكونياك فى إحـدى الحانـات القريبة، وفى النهاية اتّخذ مجلسه الدائم عند بابا جسـا، وهى حانة صغيرة تبعد عنا مسافة بيتين فقط. من أربع أو خمـس سـنوات كـان اسـم الحانة المبتذل كافياً حتى يمنعه من دخولهـا. لـم يكـن هروبه فقط من الانتظار الدائم للزبائن، ذلك الانـتظار الـذى أصبح يطول شيئاً فشيئاً، ولكنه كان يهرب من انـتظار آخـر، انتظار لشيء يتضاءل بالوقت، ويصبح أكثر نأياً عـنه، أكـثر رمادية، انتظاره للحياة المختلفة تماماً عن تلك التى يعيشـها، حـياة المغامرة المليئة بالأخطاروالمفاجآت، حياة مليئة وسـعيدة. هكذا انتهى به الحال جالساً عند بابا جسا بجوار المحل،

وكـــانوا يستدعونه إذا أتت إحدى المترددات على المحل المهمات، هناك كان يمص حبات النعناع التى كان يخرجها من جيب مريلته البيضاء.

كـــيف احتملـــت، أمي، كل هذا، فهى عرفته *دائماً اجتماعياً*، جذابـــاً ويســـتولى علـــى قلوب الناس. كيف تعاملت هى مع هذا الوضـــع، وهـــى المرأة المنظمة الودودة دائماً؟ حاولت أن تحميه، وهـــو الأب القـــوىّ. دون أن تبدو عليها ولا علامة تذمر واحدة، عـــندما يكون مخموراً وغير واثق من خطوته ثم يرمى بنفسه فى تـــثاقل فـــوق المقعـــد ويظل جالساً إلى المكتب، ينثر الرماد هنا وهـــناك، وأحياناً تقع منه السيجارة المشتعلة فوق الأرض. هيا يا هـــانس، فلتذهب إلى الفراش. ولا إشارة صغيرة تنم عن أىّ شىء نلحظهـــا عليها أنا أو أختى، لا تغمض عينيها فى ضجر، لا تعلق تعليقا واحداً، حتى بعدما يذهب إلى فراشه، لا تهزّ حتى رأسها أو تعلّق.

كـــان يستشعر ألماً داخلياً صعب تحديد مصدره، ربما بسبب ثقـــل خيـــبات الأمل المتكررة، أو الشعور بأن كل الأحداث عادية وواحـــدة، والفقد البطىء لأية رغبة. لم يعد يقرأ. وأصبح لا يقص حكاياتـــه العاديـــة إلا فيما ندر، وعندما يكون مخموراً فقط. كان يســـتيقظ فـــى الصـــباح مـــتأخراً. ورابطة العنق، التى كانت فى الماضـــى دائمـــاً معقودة بإحكام تتدلى فوق ياقة قميصه المفتوح. وفـــى المحـــل كان يجلس وينظر من خلال الباب المفتوح متأملاً الصيف. ثم لم يعد يجلس فى انتظار الزبائن.

فـــى ذلك الوقت كانت أمى هى التى تتولى أمر إدارة المحل، حـــتى فـــى الورشة أصبحت تتولى مسئوليات أكبر. لم تتدخل فى *الأمـــور الحسابية*، فمايزال أبى يتولاها. كانت تجارتهما الحرة فى خطر، هذا ما كانت تعرفه.

أن تراعى فى حياتك دائما آداب السلوك.

إليم. ١٢ نبع ماء و٨٦ نخلة فى الصحراء. واحة للراحة.

أنجـــزت تدريبات شد العضلات ثم انطلقت متجهاً إلى هناك، الـــيوم كـــان صباح السادس من مارس. الشمس كانت قد ظهرت لـــتوّها. الســـماء بلا سحب ومانزال مغطاة بلون رمادى مائل إلى الـــزرقة. الأشـــجار والشجيرات اتخذت لوناً أخضر مايزال شفافاً ووســـط كـــل هـــذا ظهـــرت حبات الكرز البيضاء الأولى بلونها الأبيض اللامع.

مشـــيت بمحاذاة نهر الأيسباخ، الذى كان يصب خلف شلال صغير. كان الجو بارداً، أدفأ قليلاً من درجة التجمد. مشيت وسط الحديقة الإنجليزية، متجهاً إلى الوادى الأخضر، حيث تقف شجرة زيـــزفون وحـــيدة. بـــدأ اللـــون الأخضر يكسو جذعها وفروعها الواطـــئة. وفى جذعها الضخم المتكوّر كان قد نما على شكل هيئة تمـــثال مـــن الطين للعذراء مريم. لون أزرق مضىء فى القشرة البنية.

وأنا أمشى، أدركت أننى سأبدأ بما أجلته لأسابيع عديدة. اليوم

سأستطيع أن أكتب عنها.

عاشت أمى ٣٣ عاما بعد موت أبى. ماتت وعمرها ٨٩ عاماً. وفى كل مرة عندما كنت أتصل بها تليفونياً. كنت أفاجأ بصوتها، صوت كان وقعه على السمع شاباً، وأفاجأ أيضاً بضحكتها العالية التى لم تتغير مع الزمن. الصوت، وقبل كل شىء ضحكتها، صوت وضحكة لفتاة صغيرة تسرد أحداث صغيرة، عن أناس قابلتهم ولكنها أصبحت لا تقابل أناساً كثيرين كما كانت فى الماضى عندما كانت تدير المحل.

كانت تقص بحسٍّ فكاهى. أحببت ضحكتها، فقد كانت قريبةً منى، قريبة جسدياً، وحتى الآن عندما تضحك أمام عينى، جالسة فى مقعدها الشيبندال المصنوع فى *الزمن الجميل* وتضحك، تنحنى فى ضحكتها قليلاً إلى الخلف، حركة خاصة بها جداً، وترفع يدها اليمنى وتخبط بها فى رفق فوق فخذها. لم تضحك فى حياتها أبداً ضحكة شماتة واحدة. كانت تفهم الأحداث الغريبة، الاختلافات عن المألوف، تنظر لكل ذلك نظرة لم تكن أبداً خبيثة، ولكنها كانت ترصد بها الاختلافات والإمكانيات الكثيرة التى تزخر بها الحياة. كانت تعطى لكل حالة اسما، تماماً كما كانت تطلق على زبوناتها أسماء تناسبهن تماماً، أسماء تدل على تبصرها: الصارخة، السابحة فى النقود، أو ساق الرياضى. كانت تربط بالمسميات التى تطلقها على زبوناتها ، تجارب وقصصاً عاشتها، وكانت تستطيع أن تضيف إلى تلك القصص والتجارب ملاحظات جديدة تصنع عالماً مضاداً يهدم العالم الأصلى. صوتها، الذى كلما تقدمت فى

السـن، كلما كان يتخذ لكنة أهل هامبورج. ربما لستطعت أنا بعد أن عشـت فى ميونخ فترة طويلة أن أتخلص من لكنة هامبورج، ولهـذا السـبب كنـت أجـد مطها للحروف المتحركة كعادة أهل هامبورج ملفتاً للنظر.

عصـر ذات يـوم، اتصـلت بـى أختى وهى تبكى، فهمتها بصعوبة شديدة. أمى أصيبت بجلطة ونقلت إلى مستشفى إليم.

كانـت فـى غـرفة مشـتركة مـع ناظرة مدرسة متقاعدة. الممرضـة، وهى سيدة متقدمة فى السن تتكلم بلكنة أهل بروسيا، قالـت لـي، تكلـم معهـا، الحديث معها مهم. جلست إلى جانبها وحكيت عن رحلتى بالطائرة، عن الأطفال. شيئا فشيئاً وكأنها آتية من مسافة بعيدة، عادت إلى رشدها، نظرت إلى ثم مدت لى يدها اليمـنى، يد رقيقة وخفيفة، ومع ذلك فقد ضغطت على يدى بقوة. وجهها كان مائلاً إلى الناحية اليسرى، والناحية اليمنى من وجهها كان ترتعش ارتعاشات طفيفة.

أصـيبت بشـلل نصفي، كانت تُصدر همهمةً غير مفهومة، ولكـن بـيدها اليمـنى ضغطت على يدى، ثلاث مرات قصيرة متتالية. تلك كانت إشارة نتفاهم بها سوياً، عندما كنت أمشى معها وأنـا طفـل فـى شوارع المدينة ونريد أن نلفت انتباه بعضنا إلى شـيء ما: امرأةٍ بقبعةٍ مضحكةٍ، أو رجلٍ بارتعاشاتٍ عصبيةٍ فى وجهه.

كنا نتمشّى فى وسط المدينة مرة أسبوعياً، ثم نجلس فى مقهى عند سوق الأوز أو فى مقهى الألترسبافيون. كنا نطلب التورتة وكانت هى تشرب القهوة، وأنا أشرب الكاكاو. ومازال إلى اليوم عندما أختار مقهى أفضّل دائماً المقهى الذى تتقابل فيه السيدات المسنات اللائى يرتدين قبعات مستديرة. كنّا نجلس بين الآخرين الذين يأكلون التورتة ويثرثرون. ثم نتخيل أنا وهى حكايات عن النساء اللائى يجلسن هناك، ما الذى يفعلنه، من أين أتين، هل لديهن أطفال، هل يزال أزواجهن على قيد الحياة وأى مهنة يمتهن أولئك الأزواج. متعة غير عادية فى اختلاق القصص، وفى تفسير مجرى حياة الآخرين. ثم نعود بعد ذلك إلى البيت. كانت ترتدى عندما تخرج قبعة وقفازات، وفى الصيف قفازات من الشبك وتخلع الأيمن عندما كانت تمسك بيدى.

لها صورة مع أهلها فى حجرة المعيشة بمنزلهم. بيت على طراز البيوت التى شيدت فى أوائل القرن، به بيانو ضخم وصور وسجاد مزخرف على الحائط، بيت يبدو عليه الرخاء المريح، وتفاصيل الترف، المكتب والمصابيح كانت من طراز اليوجندشتيل. لابد أن جدّى كان يكسب الكثير من النقود فى ذلك الوقت، فقد كان ذلك عصر القبعات: قبعات كبيرة ومربعة، قبعات بريش الطاووس، وبعد الحرب كانت الموضة.. للقبعات المستديرة، ففى العادة كانت النساء، إذا لم تكن فلاحات، ترتدين القبعات، تماماً كما كانت أمى تفعل حتى فى سنوات عمرها الأخيرة.

جـــدى فى الصورة يجلس فى مقعده الوثير، ممسكاً بسيجارة وإلـــى جانـــبه المـــرأة التى تزوّجها بعد موت والدة أمى، زوجته الأولـــى، وكانت أمى تبلغ آنذاك عامين. زوجته امرأة قصيرة بلا شـــكل محـــدد، ولها نظرة واضحة الشر، لا يمكن أن نقول غير ذلـــك. ما فهم أحد فى ذلك الوقت، لماذا تزوج جدى بتلك المرأة، فهى لم تُجد سوى شىء واحد: التدبير. غالباً كان ذلك هو السبب، أن يدخر جدى المال ويزيده. أصبحت تلك المرأة زوجة الأب، أى زوجـــة جـــدى. كنـــت أتحاشى قربها وأنا طفل، ورفضت طوال الوقـــت أن تقبّلـــنى أو أن تضـــعنى فوق حجرها رغم محاولات الإقناع المستمرة. امرأة يملؤها الشر والبخل وتحلو لها النميمة على الناس والشماتة فيهم، كانت زوجة أب مثل تلك التى نقرأ عنها فى الحكايـــات الشـــعبية. كانـــت تحبس أمى وهى طفلة بسبب غلطة صـــغيرة فى حجرة التنظيف بالبدروم، وتشوّه صورتها أمام أبيها الذى كان لا يأتى إلى المنزل إلا قليلاً، كما كانت تعاقبها بأن تمنع عـــنها الطعـــام، لدرجة أن الخادمات كن يشعرن بالتعاطف معها ويهرّبن لها بعض الطعام فى الخفاء. كان الطعام المفضل للطفلة؛ الـــبطاطس المحمـــرة فـــى السمن، وذات يوم عندما كانت وحدها بالبيـــت طبختها لنفسها وفى اللحظة التى كانت الطفلة فيها بداخل المطبخ تغسل المقلاة عادت زوجة الأب واكتشفتها. ولأنها سمحت لنفسها أن تأكل الصنف الذى تحبه منعت عنها البطاطس المحمرة لمدة عام، وعندما كان الآخرون يجلسون معاً إلى المائدة ويأكلون منها، كانت هى تنظر إليهم فقط ولا تمد يدها إلى البطاطس.

كيف حدث أن تطورت تلك الطفلة لتصبح امرأة ودوداً طيبة

تكـــره الكـــذب، رغم أن كل ما عانته كان لا يمكن أن يؤدّى إلى ذلك. كانت امرأة رقيقة الجسم ولكنها رغم ذلك كانت قوية الإرادة ومليئة بحب غير مشروط.

بقيـــت بضعة أيام فى هامبورج، زرتها فى المستشفى، كنت آتـــى وقـــت تناولها الطعام، أدفع بالملعقة فى حرص إلى فمها. لم يكـــن باستطاعتها المضغ، فقط كانت تبلع وببطء شديد. عندما آتى وأذهـــب، كانـــت تشير لى تلك الإشارة بأصابعها، أبجدية التفاهم بيننا، أبجدية الضغط الرقيق بالأصابع.

ثـــم ذات صباح، لم أجدها فى حجرتها. السيدة التى تشاركها الحجـــرة أخبرتنى أنها نقلت إلى قسم آخر. لماذا؟ إنها لا تعرف، ولكـــن كـــان واضحاً أن السيدة تشعر بالحرج، أحسست بذلك من ادعائها الواضح أنها لا تعرف.

أمى كانت قد نُقلت إلى قسم آخر. فعندما قُبلت فى المستشفى افترضوا أو أملوا أنها تابعة لشركة تأمين صحى خاصة لا للتأمين الحكومى. ولهذا السبب وضعت فى البداية بغرفة العناية المركزة الخاصـــة، ثم أعادوا نقلها إلى غرفة بها ستة أسرة عندما أدركوا خطـــأهم. نقلها إلى هناك كان بالنسبة لى علامة وتلخيص لحياتها التى قضتها فى عمل متصل.

المستشـــفى ونظـــام التأمين الصحى. سألت عن سعر الغرفة الأخـــرى وســـعر العلاج الخاص. كان مرتفعاً. فكرت فى الأمر. وهنا قيل لى أن كل علاج إضافى فى تلك الحالة لا يتحمّله التأمين وإنما ندفعه نحن. مبالغ من المال لا أملكها. وهكذا ظلّت راقدة فى

تلك الغرفة ذات الستة أسرة. لاحظت كدرى، وضيقى وخجلى من أننى لا أستطيع أن أغيّر أى شىء، من أنها تحولت إلى شىء ينقلونه من مكان أغلى إلى مكان أرخص. ضغطت على يدى، وحاولت أن تبتسم، ابتسامة احتلت جانباً من فمها بذلت فيها جهداً كبيراً.

الغريب أنها نُقلت من الدور الأرضى إلى الدور الأول، حيث ولدتنى قبل واحد وخمسين عاماً. والغريب أيضاً أن غرفتها بالدور الأول كانت مشمسة، يعتنى بها ممرضات ودودات ولم ينقصها شىء. كانت تسمع حديث المريضات المشاركات لها فى الحجرة وضحكهن، وحكايات المرض الغريبة التى كانت دائماً تلخص سير الحياة.

جلست عند فراشها وساعدتها لتشرب من فنجان "بشفاطة". حول الفراش المجاور تجّمع أفراد أسرة أسبانية كبيرة العدد. كانوا يضحكون ويتكلمون كثيراً. زوارهم أكلوا المرتدللا والزيتون، قطعوا من الخبز الأبيض قطعاً كبيرة لفوها بالمرتدللا وقدموا لى أيضاً منها.

الهدوء أو السكينة التى كانت تشع من أمى، كانت مفاجأة بالنسبة لى، حتى أننى كنت أضغط من حين إلى آخر على يدها، من أجل أن أدفعها إلى رد فعل ولو بسيط. فى الغالب كانت تصمت، وأحيانا كنت أحكى لها ما يحدث فى بيتى، عن الأولاد

وداجمـــار، عن عملى. كانت ترقد فى فراشها وتنظر إلى النافذة. رأســـها كـــان مائلاً، أصابته الجلطة، ولكنها كانت مع ذلك قادرة علـــى أن تـــنظر مـــن النافذة. ربما اختارت لها الممرضات ذلك الفـــراش عن قصد حتى لا تضطر إلى النظر للحائط. بين الحين والآخـــر كانت تتحسّس بيدها اليمنى السليمة يدها اليسرى التى لا تستشـــعر بها شيئاً. ومع ذلك كانت تلك اليد دافئة ومليئة بالحياة. ثـــم، آآآههههـــه، تثاؤب، كانت تتثاءب بطريقة لم أعهدها فيها من قـــبل، فهى كانت دائماً تضع يدها على فمها. الآن أراها قد فتحت فمهـــا إلى آخره وداخله أرى جزءاً غريبا علىّ، لساناً أزرق داكن اللون.

شـــمس، نـــافذة، يد، أيد، يدان، أصابع. جفن. الصوت الذى يخرج من الفم يستلزم جهداً، أن تقول غداً يستلزم جهداً، وبعد غد مجهوداً أكبر.

تعافـــت ببطء، استطاعت أن تتفوّه بكلمات قليلة. ما بقى لديها مـــن تلك المحنة قدرتها على الفكاهة، حتى فى لحظات انكسارها، الفكاهـــة الـــتى كانت تصنع بها مسافة بينها وبين كل ما يحيطها، مســـافة نـــتفهمها تماماً. فى إحدى زياراتى لها ذات عصر، كانت النســـاء الأخريات داخل الحجرة، كلهن بالصدفة مسنات فى حالة اســـتثارة واضـــحة. مـــرة أخرى دخل رجل عجوز إلى الحجرة معـــروف عنه ولعه بالتجوال فى الأجنحة المخصصة للنساء. أمى الـــتى كانت تفهم كل ما قيل فى الغالب، كانت تهز رأسها وتربت باليد السليمة على جانب وجهها ثم قامت بحركة تقوم بها دائماً إذا

كانت فى حضرة شخص يتكلّم كثيراً، كانت تضم السبابة والإبهام مشكّلة مِنقاراً يفتح ويقفل. ثم بعد جهد شديد خرجت منها جملة بعدما استفسرنا منها أكثر من مرة عما تريد قوله: هل ترغبون؟

أتت الممرضة وقالت فقط، أخ، ايلر العجوز، هو ورجل أسبانى آخر، لا، لا، إنه فقط كثير الشكوى.

عدت إلى ميونخ، وخرجت أمى بعد بضعة أيام من المستشفى. رعتها أختى بمساعدة ممرضة فى الإسعاف. حادثت أختى تليفونياً. نعم، هى أحسن، تستطيع أن تحرّكَ أصابع اليد اليمنى قليلاً. فلننتظر ونرى. سمعتُ خشخشة فى التليفون ثم كلاماً مبهماً. فى كل مرة أكلّمها كان يعتصرنى ذلك الألم، ألم كان بالنسبة لى أكثر فظاعة من رؤيتها، هذا الصوت الواضح الذى أعرفه تماماً، هذه الضحكة والتى كانت تنتهى فى معظم الأحوال بكلمة لا لا.، ألاّ أسمع كل هذا، هذا هو الألم. لم يعد باستطاعتها الضحك. لم أفهم شيئاً مما قالته. عندما كنت أراها أمامى وهى مريضة كنت أفهمها، عن طريق بعض الحركات المعروفة لدينا نحن الاثنين، عن طريق حركات الوجه، وقبل كل شىء أيضاً عن طريق ذلك الضغط على يدى، تلك الحركة التى ماتزال ماثلة بذاكرتى منذ أيام الطفولة. الحركة التى كانت تضمن لى دائماً قرباً منها، قرب يصل إلى درجة الحميمية.

بعد شهر زرتها فى البيت. كانت ترقد فى فراشها الذى كنت أنام فيه عندما كنت آتى لزيارتها، وكانت آنئذ تنام فى حجرة

المعيشـــة بفـــراش يُطوى ويُفرد، بينما كنت أفضل النوم فى ذلك الفـــراش. فالفـــراش لم يكن له مسند لا فى مقدمته ولا فى نهايته. ولكـــنها كانت تصمم على أن تنام هى فيه، وفى كل مرة تكون قد رتبـــت فراشها من أجلى، فراش له لون العاج، وتكون قد فرشته بـــالملاءات النظيفة وتضع فوقه مفرشاً ناعماً ووسادتين،واحدة فى مقدمـــة الفـــراش والأخرى فى نهايته لتدعم القدمين. وفى الغطاء كان الريش كله يتجمع ليلاً عند القدمين ويصبح فى بدايته فارغاً.

الآن نامـــت فـــى فراشـــها ونمت أنا فى الفراش الذى يفُرد ويُطـــوى. أختى كانت قد كوت لى قميصاً، أبيض اللون له جيبان وأزراره مصـــنوعة مـــن العظـــم. قميص من أمريكا، كانت أمى تكويـــه فى معظم الأحيان التى آتى لزيارتها وكانت تقول عنه أنه قمـــيص من قلع المراكب، من قماش متين. أختى كانت قد علّقت القميص فوق خزانة الملابس أمام الفراش.

نظرت أمى من فراشها إلى القميص وغمغمت بشىء، فهمته بعد أن استفسرت منها مرة بعد المرة: القميص يعجبنى كثيراً.

فيما بعد فقط أدركت أنها كانت تتمنى أن ترتدى هذا القميص عندما تموت.

بعـــد ذلك بوقت قصير أصابت أمى جلطة أخرى ونُقلت إلى المستشفى. وفى الصباح الباكر اتصلت الممرضة فى وحدة العناية المركزة وقالت أن حالة أمى سيئة.

ذهبت إلى المطار وطرت إلى هامبورج، وهناك ركبت "تاكسى". ومن خلال النوافذ التى أنزلتها كان الهواء الدافىء يلمس وجهى، وتهف علىّ رائحة ورق الشجر الجاف والماء المنعش فى القنوات.

وفى مدخل المستشفى قابلتنى أختى وقالت أن أمى ماتت منذ ساعتين.

كانت ترقد فى الحجرة الصغيرة لم تكن حجرة بمعنى الكلمة، بل أشبه بمخزن صغير يتسع فقط لفراش وكرسى واحد. وفوجئت بأنها أصغر وأكثر هشاشة مما كنت أتصور، تلك المرأة ذات الإرادة الحديدية، المرأة التى لا تنكسر، التى لم تكن تتطلع أبداً إلى السيطرة،. كان مغطاة بملاءة بيضاء وفوقها استقرت يداها غير المعقودتين، كانت قد خرجت من الكنيسة. الممرضات قد وضعن حولها وروداً صغيرة تنمو فى حديقة المستشفى. يداها مثل يدى طفل صغير. لم يكن بهما أية تجاعيد رغم أنها كادت تبلغ التسعين. أمسكت برفق بيدها اليمنى. برودتها كانت صدمة بالنسبة لى. رفعت برفق إصبعاً من أصابعها. ولمدة دقيقة واحدة هُيِّئَ لى كما لو أنها تضحك. كان خداها باردين أيضاً ومرفوعين قليلاً بسبب قطعة القماش البيضاء التى تم ربطها حول ذقنها. خلف رأسها فقط كان دافئاً دفء الحياة.

قيادة السيارة، أصوات فى الردهة وفى الخارج أمام النافذة المفتوحة شحرور يغنى. فى الماضى عمدنا الشحارير باسم أوتو، كما عمدنا أشياء كثيرة كنا نملك نحن الاثنين فقط شفرة سرية

خاصـــةً بـــنا، لا أحـــد كـــان يعرف من كنا نعنى بتلك الأسماء: دادمـــوس، قـــزم الأرز. كنز لغوى مشترك. هكذا كان لدينا لفترة طويلـــة عالم خاص، عالم نتحرك فيه بتآمر، أنا وهى، كنا نعرف أن الأمر ليس فقط مجرد إعادة تسمية الأسماء، وإنما إشارات إلى مواقف خاصة عشناها سوياً. حتى ذلك كان شعوراً بالحماية التى تستطيع أن توفرها لك دائماً وفى أىّ وقت.

خرجـــت إلـــى الشمس فى ذلك اليوم الصيفى الحار، مشيت بطـــول ضـــفة قناة ايزبك، الماء أخضر به مسحة سواد. والشمس داخله سوداء، ولكن لم يكن ذلك السواد إلا ظل الجسر فوق القناة. الرياح توقفت والسماء طغى عليها صمت عظيم.

كانـــت لديها أمنية واحدة، أن ترى قبره، أن تذهب إلى حيث دفن. سنامينكا. حتى رقم القبر كان مدوناً بدقة، فى خطاب طبيب قوات العاصفة، مقابر الأبطال رقم ل ٣٠٢، . كانت تتمنى لو أنها تســـتطيع ذات يـــوم الذهـــاب إلى هناك، أو على الأقل إلى مكان قريـــب، لأنهـــا عرفت أن مقابر الحرب قد هدمها الروس. ففوق بعـــض مقابر الجنود الألمان أقامت الحكومة الروسية بعد الحرب مقالب قمامة أو مصانع. فلا يجب أن يبقى شىء يذكّر بالمتطفلين.

كانـــت تلـــك أمنـــية لا تتنازل عنها أمى، أن تكون ولو لمرة واحدة قريبة منه على قدر المستطاع، من أجل أن تودعه. فى ذلك الوقـــت كـــان مستحيلاً أن يسافر أىّ شخصٍ إلى هناك وحده. فلم

يكن الاتحاد السوفيتى يوافق على تلك الرحلات. كانت تبلغ أربعة وسبعين عاماً عندما استقلت الحافلة فى رحلة إلى بولندا والاتحاد السوفيتى وفنلندا والسويد، وكانت الرحلة ستمر عبر منسك.

أملت أن تؤجر عربة خاصة وتنطلق فى زيارة سريعة إلى المقابر. ولكنها لم تحسب المسافة والظروف فى الاتحاد السوفيتى آنذاك بشكل مناسب. ولكنها كانت تريد أن تحاول، حتى إذا لم تكن هى نفسها على يقين من نجاحها فى تجربتها.

من تلك الرحلة بقيت لدىّ ملاحظاتها وبعض الصور، صور سريعة التقطتها، كانت بالنسبة لها بالتأكيد ذات معنى خاص، صور لشوارع، أكواخ فلاحين وبيوت حديثة وجرارات وصور لعابرين فى الشوارع.

أحد المسافرين فى المجموعة مع أمى، وكانت سيدة مسنة، دونت يومياتها عن تلك الرحلة، وذكرت الأماكن والأوقات بدقة متناهية، ثم فيما بعد كتبت كل ذلك على الآلة الكاتبة بحرص شديد، وأعطت نسخة لأمي.

٧. يونيو (صباح عيد الخمسين)

الساعة الثانية عشرة

على مسافة غير بعيدة من منسك توقفنا أمام موقع تذكارى ضخم ثم نزلنا من الحافلة. ارتفع أمام أعيننا تل عملاق يسمى "تل المشاهير"، عبارة عن أكوام تراب شربت من دماء القتلى فى الحرب الأخيرة ثم جمعت مع بعضها مكوّنة هذا التل. أثرّ فىّ ذلك الموقع كثيراً لأنه بدون نصب تذكارى.

الساعة الواحدة

تابعنا الرحلة من قرية إلى قرية عبر مسافات لا نهائية. أفكر بالحرب العالمية الثانية، وأسمع فى أفكارى التقارير الحربية للجيش وأرى جنود المشاة الألمان يسيرون فى الأراضى الروسية الشاسعة ومستنقعاتها. يا لتلك الأوقات. شعور بالأسف يسيطر علىّ. على بعد مائتى كيلومتر من منسك تنتشر أشجار التفاح والكرز فى عز ازدهارها. الربيع الروسى جميل ولكنه يأتى متأخراً.

بموت أمى انتقلت رغبة السفر إلى هناك.. منها إلىّ. لم تشر إلى هذا أمامى أبداً، ولكننى لم أستطع التخلص مطلقاً من تلك الرغبة الملحة. بدت كأنها التزام، بالرغم من أننى لم أعدها بشىء. كنت أريد الكتابة عنه، ولكن لم أتصور أبداً أن أسافر إلى أوكرانيا حتى أرى الموضع الذى دفن فيه. لا أستطيع أن أتذكر متى بدأت تلك الفكرة فى زيارة قبره تتحول ببطء لتصبح عهداً قطعته على نفسى، ولكننى أذكر على أية حال أننى شعرت بذلك بعد موت أمى. غالباً عندما بدأت أهتم بمذكراته وخطاباته، شعرت أننى لابد أن أرى المنطقة التى حارب وأصيب فيها ثم سقط قتيلاً. المكان الذى قتل وأصاب فيه هو أيضاً آخرين.

٨/٤

تابعنا السير إلى بيلجراد. القوات لا تستطيع التوقف. فالروس خلفنا.

٨/٥

طائـــرات الـــراباتس الروسية تهاجم القافلة. عربات مصفّحة تطير فى الهواء. اثنان من القتلى وثلاثة مصابين من فرقتنا.

٨/٦

تابعنا السير.

تلك كانت آخر جملة دوّنها: *تابعنا السير.*

بعد ذلك تأتى ملحوظة أخرى دوّنها بدون تاريخ، أى بين ٧/ ٨ وبيـــن تـــاريخ إصابته فى ١٩٤٣/٩/١٩. دون تلك الملحوظة بحـــرص شـــديد وبخـــط مـــدوّر وهو يضغط بوضوح على القلم الرصـــاص: *أنهى هنا يومياتى، إذ أننى أرى أنه من غير المجدى أن أكتب عن فظائع تحدث أحياناً بكل تلك الدقة.*

الكتابة عن الألم وعن الضحايا تعنى أيضا البحث عن الجناة، عـــن الذنب عن أسباب الفظاعة والموت، تماماً مثل تصوُّرنا عن الملائكة الذين يدوّنون بكل دقة الأفعال البشعة وآلام الإنسان.

هذا أقل شىء أقدم؛ شهادة.

كتبت إلى أرشيف تاريخ الحرب فى مدينة فرايبورج وطلبت الاطـــلاع علـــى يوميات الحرب لكتيبة الجماجم فى عام ١٩٤٣. عندما وصلت إلى هناك وجدت الملفات فارغة ولم يستطع موظف الأرشـــيف أن يقول لى أين اختفت. ربما نقلت تلك اليوميات إلى الولايات المتحدة مع كل الملفات التى أبعدت بعد الحرب.

ولكن لماذا؟

دعـــوت إلـــى مديـــنة كييف لأقرأ بعضاً من أعمالى الأدبية، وهـــناك أردت اســـتئجار عربة إلى سماينكا التى تبعد عن كييف ثمانمائـــة كيلومـــتر. اريس كلوسه المترجمة التى كانت تعمل فى معـــرض الكـــتاب الألمانى فى كييف، عثرت على عربة خاصة بســـائقها. فـــى الـــيوم نفســـه الذى وصلت إلى هناك، وكان ذلك بالصـــدفة فـــى التوقيت نفسه الذى جرح فيه أخى، أيقظنى رنين تليفون عالٍ فى الفندق. حلم مظلم، مازال بسبب الاستيقاظ المفاجئ غـــير واضـــح، حلـــم ظهر فيه أخى أيضاً كظلال غير واضحة. حاولـــت أن أســـتيقظ وأنـــا فى تلك الحالة من الذعر. لم أستطع. شـــعرت بـــألم لا يحتمل فى ساقى الاثنتين، زحفت خارج الفراش مـــتجهاً إلـــى الهـــاتف عالى الصوت، أخذت أتخبط فى المنضدة والمقـــاعد، أمســـكت بالسماعة، وسمعت صوتاً غير مفهوم وبعيداً جداً، سكت فجأة بعد أن أخذت أصيح مرة بعد المرة هالو.

بعد أن جلست بدأت أعود شيئا فشيئا إلى وعيى، استطعت أن أحـــدد موقـــع الألم فى سمانتىّ، أصابهما شد عضلى، بدأ يتحسن عـــندما أخذت أضغط على موضع الألم. نهضت، وحلقت ذقنى ثم أخـــذت حمّاماً وارتديت ملابسى. هبطت إلى أسفل ، وهناك كان السائق ينتظرنى ليقلنى إلى الجامعة.

المناقشـــات مـــع دارسى الأدب الألمانى ومعلميه كانت تتسم بحـــرارة البشـــر نفســـها، حرارة تصيبك بالخجل إذا ما فكرنا فى الماضى. الذى يستقر بين الجبال، قريباً من كييف.

ذهبـــت إلـــى دورة مياه المقهى. نظرت إلى نفسى فى المرآة

ورأيــت شخصــاً آخــر. الوجه شاحب، يكاد يكون أبيض اللون، العيــنان محاطــتان بظلال داكنة بلون البنفسج الغامق تماماً مثل عينى المحتضر.

فيما بعد سألت السيدة التى كانت تدير المناقشات إذا كانت قد لاحظت أى تغير طرأ على عينىَ أثناء المحاضرة.

قالت نعم، ولكنها لم تشأ أن تقول لي، لأنها اعتقدت أن مجرد إشارة إلى ذلك يمكن أن يبلبل أفكارى. فجأة وجدت تلك الظلال الداكنة تنتشر تحت العينين، كأننى تلقيت ضربات عليهما.

فــى العصــر حادثــت الشخص المسئول عن مقابر الجنود الألمــان فى السفارة الألمانية، واستعلمت عن المقابر فى سماينكا. قيل لى أن المقبرة قد هُدمت منذ بضعة أسابيع، ونُقل حوالى سبعة آلاف هيكل عظمى إلى صالة كبيرة فى أحد المصانع. أما الرجل الــذى كان بحوزته المفتاح فلم يكن متواجداً هناك، وإنما كان فى القــرم من أجل تجهيز مقابر جديدة. قال لى المسئول فى السفارة، لــن تجد شيئاً يستحق أن تراه هناك. سألنى عن رقم القبر، ولكن حتى الرقم لم يكن ليساعدنى، إذ أن المقبرة قد أُزيلت. ولكنه عندما ســمع أن أخى قد بُترت ساقاه، بدأ يسألنى عن كل ساق، والمكان الــذى بــترت فيه كل منهما. هل كان هذا ضرورياً للتعرف على الهيكل العظمى الخاص به؟

نعــم، ولكــنك لن تستطيع الدخول إلى صالة المصنع، فهى مغلقة.

لمـــدة ثانية واحدة تساءلت إن كان علىّ أن ألغىَ حجز العربة الـــتى طلبـــتها. ولكننى مع ذلك ذهبت إلى نهر دنيبر، إلي الموقع الـــذى عبر فيه الجيش الأحمر النهر ليقاتل فى معركة كلفته مائة ألف جندى. وهناك وجدت نصباً تذكارياً ضخماً وفوقه كل أسماء الجـــنود الروس الذين شاركوا فى تلك المعركة. يقع النصب فوق هضـــبة مرتفعة ومن هناك تستطيع أن ترى نهر الدنيبر وشرقها تستطيع أن ترى الأرض المنبسطة، وأيضاً سحباً متراكمة تتحرك ببطء فوق تيار النهار وكانت تشع ضوءاً.

جلســـنا فوق الحشائش، وأمسك السائق بعلبة كافيار محفوظة كـــنا قد اشتريناها من قبل بدولارات قليلة فى كييف. كان قد نسى فتاحة العلب ففتحها بمطواة، وثنى بحرص غطاء العلبة المهترئ. أخذنـــا نأكل الكافيار بملاعق بلاستيكية وشربنا الفودكا. أتت إلينا ســـيدة تحمل سلة وأهدتنا بيضاً مسلوقاً وطماطم مخللة. وأهديناها نحن بدورناً" كافيار" إلا أنها كانت تريد الفودكا.

فيما بعد توجّهنا إلى كانيم، وهى مدينة على نهر الدنيبر. فى تلـــك الـــرحلة كانت المسافة بينى وبين قبر أخى أقرب ما يكون. أعـــيد بـــناء المدينة بعد الحرب. أبنية من الحجر قبيحة إلى درجة الملـــل. محطـــة حـــافلات فوق أسفلت غاص فى الأرض و"تندة" مســـطحة للحماية من تقلّبات الجو، أمام المحطة مبنى اعتقدت أنه صـــالة مصـــنع، فـــى الحقيقة كان ذلك المبنى مسرحاً مهجوراً. المصـــنع الوحيد الكبير فى المدينة مصنع كهرباء، وكان مغلقاً فى ذلك الوقت. نسبة البطالة كانت ٩٠%.

السـائق الأوكرانى، الذى كان يتحدث الألمانية بطلاقة دعانا لـزيارة أهلـه. الداتشـا[1] كانت فى مكان ما خارج المدينة فوق هضـبة. إلى جانب البيت الخشبى الصغير بنى هيكل لبيت عائلى كبـير عمل الأب فى بنائه منذ سنوات. الأب فى نهاية الخمسين، وشـعره مصبوغ بلون أسود فاحم حتى أنه كان يلمع تحت شمس العصر مثل الفحم.

أرانا هيكل البيت الذى شيّده وحده وكان ابنه يساعده من حين لآخـر، مشـينا فوق الصقّالات الخشبية وفوق الأرض المصبوبة بالأسـمنت، إنهـا الشـرفة، وعلى اليمين والشمال أسياخ الحديد. خـلاط أسـمنت صغير يحجبه غطاء بلاستيكى، تلال من الرمال ومن الطوب الأحمر، دلاء. هناك سيتم وضع أساس الدور الثانى، فـى العـام التالى، وقال الابن ، كل ذلك يأخذ وقتاً طبعاً، كل تلك الأشياء، الحديد والأسمنت لابد من توفيرها أولاً.

هل يمكن شراء الأسمنت وحديد التسليح؟

ضحك، لا، لابد فقط أن تعرف كيف توفره.

عند المنحدر بيوت أخرى بناها أصحابها بأنفسهم، أشكالها تنم عـن فوضى وعدم قدرة أصحابها المحدودة على تنظيم البناء فيما بيـنهم. دجـاج يجرى فى الحدائق، بط، خنزير يفتش فى أوراق الشـجر السـاقطة فـوق الأرض. جلسـنا فى الحديقة أمام البيت الخشـبى وشـربنا قهوة. فيما بعد أحضر والد السائق زجاجة من

---

١ كـوخ خشـبى صـغير فوق قطعة أرض صغيرة منتشر فى روسيا ودول أوربا الشرقية ويتم استخدامه صيفا.

الفودكا وجاءت الأم بالبيض المسلوق المخلل والأنشوفيس (السردين المخلل).

طلبت من السائق أن يسأل الرجل، الذى كان أكبر منى قليلاً إذا كان يتذكر الحرب.

هز رأسه بدون أن ينظر إلىّ. كان واضحاً عليه عدم رغبته فى التحدث حول هذا الموضوع. بعد لحظة قصيرة نظر إلىّ ورفع كأسه عالياً. شربنا فى صحة بعضنا البعض. دروشبا.

بقيت طوال ذلك العصر جالساً فى حديقة البيت الجديد الذى لم ينته بناؤه بعد. قلت لنفسى أنه من الأفضل أن أمكث مع ذلك الشخص على أن أتابع رحلتى.

كروسه كان عاملاً فى مصنع الفراء الذى كنت أتدرّب فيه. كان يضحك كثيراً ويبدو غير مهموم بالرغم من أنه كان فى أدنى درجات السلم الوظيفى بالمصنع. كانت التراتبية فى العمل تقاس بأنواع الفراء الذى يوكل إلى كل عامل بتصنيعها، الأمر الذى كان فى النهاية مرتبطاً بمهارتهم. رئيس العمال واسمه أيضاً كروزه فالتر كان فى أول التراتبية بالمصنع الذى يضمّ ستة عمال وستة صبيان فى دور التدريب. كان يقوم بتصنيع فراء الشنشلا والأوزلوت، أى أغلى أنواع الفراء، بعده يأتى عاملان آخران يقومان بتصنيع فراء البيبر والنوترى، ثم العمال الذين يصنعون فراء السناجب ، ثم أولئك الذين يصنعون الفراء العجمى مع ملاحظة الفارق بين الفراء العجمى الطبيعى الرمادى اللون وذلك المصبوغ باللون الأسود، وفى آخر الترتيب تأتى تلك المعاطف

التى تُصنع من قطع الفراء المتبقية. وذلك كان عمل المتدربين بعد قضـــائهم عامـــاً كاملاً تحت الملاحظة، كما كان أيضاً عمل آرثر كروزه. كان عملاً مملاً يترك فراغاً كبيراً كافياً للحكايات، لأنه لا يحـــتاج لأيـــة حســـابات أو قياسات كما كان لا يحتاج لأية مهارة حرفية مثل قص فراء السناجب مثلاً. آرثر كروزه والذى اعتقدت لمـــدة شـــهور طوال أنه واحد من المتدربين على تصنيع معاطف الفراء العجمى، كان يتحدث كثيراً عن الحرب مثله مثل كل العمال الآخرين ورئيس العمال أيضا فكلهم خدموا فى الجيش.

أول مـــرة خـــرج فـــيها آرثر كروزه من هامبورج كان مع الجـــيش، ذهب إلى بولندا وروسيا وأوكرانيا. قصصه تحكى عن مغامـــرات كبيرة وصغيرة نسيتها كلها فيما عدا واحدة، فقد جعلت من ذلك الرجل البسيط الودود فى نظرى رجلاً غامضاً ومخيفاً.

ذات مرة كان عليه أن يحضر اثنين من الأسرى الروس إلى مكـــان تجمع الأسرى. كان ذلك فى صيف عام ٤٣، فى أحد أيام شـــهر يولـــيو الحـــارة. المسافة كانت اثنى عشر كيلومتراً ذهاباً ومـــثلهما فى العودة. تراب وتراب، وبعد ساعة قال توقف. تلفت الاثنان حولهما فى حين كان هو يشرب من زجاجة المياه، بالطبع كانـــا يشعران بالعطش، كان واضحاً من الطريقة التى يبحلقان بها فـــيه، وهنا أسند الزجاجة إلى حجر فوق الأرض، ثم تراجع ثلاث أو أربـــع خطـــوات وأشار لهما بالتقدم للشرب منها، وكان يحمل البندقية تحت إبطه ويده فوق الزناد.

تردد الاثنان فى البداية، إلا أنهما تقدّما، أخذا الزجاجة وشرب كل منهما جرعة أو اثنتين، لا أكثر، ثم وضعاها مرة أخرى فوق

الرمال.

أشار كروزه إلى أنه باستطاعتهما الفرار.

تـــردد الاثنان، هيا، اهربا. أخذ يشير لهما بيده، ثم بعد لحظة واحـــدة بـــدآ فـــى الجـــرى، أمســـك هو بالبندقية ورفعها وأطلق الرصـــاص مرتيـــن، طلقة بعد الأخرى، كنت راميا ماهراً، لدىّ موهـــبة. كانـــا سيموتان على كل حال من الجوع فيما بعد داخل معسكر الأسرى.

عـــاد أدراجـــه مرة أخرى، توقف فى الطريق، وجلس فوق الأرض، وأكل الخبز ومعه قطعة من السجق، ثم شرب الماء كله. وبعـــد ذلـــك تقدم إلى مقر وحدته، و أبلغ: إطلاق الرصاص على اثنين من الأسرى أثناء محاولتهما الفرار.

قال: الشاويش أكد لى أن ذلك أفضل.

كـــان آرثـــر كروزه يعرج. قبل نهاية الحرب بقليل أُصيبت ساقه بثمانى شظايا.

كانت تلك القصص اليومية بعد الحرب، تُحكى فى المصانع، فـــى الحانات فى البيوت، تُحكى باللهجات المحلية وباللغة الرفيعة، هكذا تفتّتَ الحدث ومعه الذنب إلى أصغر قطع ممكنة. وأصبح فى الإمكـــان أن يحكـــى الـــناس عن الحرب بحرية تامة، وهو ما لا نســـتطيع تصـــوّره الـــيوم. الأعـــداء كانوا دائماً الروس ، الذين يغتصبون النساء، ويطردون الألمان من ديارهم ويتركون الأسرى يموتـــون مـــن الجوع، كل ذلك بدون أن يطرح أحد السؤال عن الذنـــب، عـــن التسلسل الزمنى والسببى لهذه الوحشية. تحرك كل فـــرد طـــبقاً للأوامـــر التى تلقاها. بدءاً من الجندى العادى حتى

الفيلدمارشـــال كايتل والذى أعلن أثناء محاكمته فى نورنبورج أنه ليس مذنباً، فهو فى النهاية قام بتنفيذ الأوامر.

أحـــد أعمـــامى تطوع فى قوات النازى وخدم لفترة قصيرة، ربمـــا لشـــهر أو اثنين فى قوات حرس النازى فى أحد المعتقلات عـــند نيونجاما. حكى أنه كان يشعر بالغثيان، لم يكن يستطع رؤية مـــنظر الدم، هكذا قالت عمتى جريتا. كان قد تطوّع من نفسه إلى الجبهة ثم ذهب إلى خطّ القتال فى البوسنة. له صورة وهو يرتدى قـــبعة ســـميكة فوق رأسه. ظل بعد انتهاء الحرب لمدة عامين فى أحـــد المعتقلات الأمريكية. هذا العم لم يكن يزورنا فى بيتنا. كنا نلقاه فقط فى اجتماعات العائلة. ما أتذكره عنه قوله أن الأمريكان كـــانوا يعـــاملون الأسرى معاملة سيئة. ففى البداية كان عليهم أن يـــأكلوا الحشـــيش. كـــان له صوت جميل، باريتون، وكان يغنى أحـــياناً، الأغـــانى الخفـــيفة والأوبريـــتات. أغنـــيات أنا جراف لوكسمبورج، أو خمسمائة بالمائة. قيل عن جدتى لأبى وهى امرأة فى غاية الحزم أنها سمعته ذات مرة أثناء وقوفها فوق السلم لتعلق الســـتائر، سمعته يقول أن ما حدث مع اليهود شىء قانونى تماماً، فضربته فوق أذنه بالستائر المبللة.

لم نعرف شيئاً عن هذا كله.

أمـــي التى لم تكن مهتمة بالسياسة، كانت تسأل نفسها مراراً وتكـــراراً عن الجريمة التى شاركت فيها، لم تعذّب نفسها بقدر ما

كانـــت تتســـاءل: ما الذى كان علىّ أن أفعله؟ ثم تقول كان علىّ الســـؤال عن العائلتين اليهوديتين اللتين كانتا تسكنان بالجوار على الأقـــل؟ أن أطـــرح على الأقل هذا السؤال، ليس فقط على نفسى وإنمـــا أيضاً على الجيران، أو بمعنى أدق على كل إنسان.فأنت لا تستطيع أن تبدأ المقاومة إلا عندما تصوغ مشاعرك فى كلمات.

الإحجـــام عـــن الكلام فى هذا الموضوع يكون بسبب الرغبة المـــتجذرة عمـــيقاً داخل الإنسان ألاّ يجذب لنفسه ما هو فى غنى عـــنه، بســـبب الرغبة فى البقاء داخل الجماعة المترابطة، بسبب الخـــوف مـــن العواقب التى يمكن أن تصيب المرء فى عمله كأن يُحرم مثلاً من الترقية، أو بسبب الخوف المبهم من النظام الحاكم.

فـــى بداية الخمسينيات، عندما قررت حكومة ألمانيا الاتحادية إعـــادة التســـليح، أتـــت عمـــتى إلينا وسألت أمى إذا كانت تريد الاشـــتراك فـــى المظاهـــرة الـــتى تنظم ضد قانون إعادة التسليح وطلبت منها ألا يعلم زوجها عن ذلك.

هـــل ذهبت أمى فى ذلك اليوم إلى المظاهرة؟ نسيت تماماً أن أسألها، كما نسيت أن أسألها عن أشياء أخرى كثيرة.

بالنســـبة لأبـــى لـــم تكـــن الحرب وفترة النازى التى انتهت بالاستســـلام غير المشروط سبباً يدعو للحزن، الحزن على انهيار مـــا كـــان ينطق اسمه مفخماً حرفه الأول: الرايخ الألمانى، ولكن كان ردّ فعله الشعور بالإهانة والمكابرة بادعاء أنه يعرف أفضل. هو، الذى كان يؤكد فى كل مرة أنه لم يكن نازياً، كان يأتى بحجج

تبرهـن على اشتراك الحلفاء أيضا فى الجرائم التى ارتُكبت: لماذا لـم يقم الإنجليز والأمريكان بتدمير قضبان القطارات المؤدّية إلى معسكرات اعتقال النازى إذا كانوا يعلمون بوجود تلك المعسكرات بـالفعل فـى عام ١٩٤٣؟ ولماذا لم يضربوا أماكن حرق الجثث بالقنابل؟ لماذا لم تقبل كل من الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا هجرة اليهود إليها فى الوقت المناسب؟

هذه المحاولة للتقليل من حجم الجريمة، لإسقاط المسئولية عن تلـك الجرائم فوق أكتاف المنتصر، أن يجعل منهم مشتركين فى الجريمة.

حتى لو لم يكن كل هذا قد طبع فى وعى الصبى، إلا أنه كان يشعر بذلك الشعور – والذى كان فى البداية لا يصاغ فى كلمات– الشعور أن كل ما كان يقال كان حججاً واهيةً، أن الأب كان قد قام بفعـل طالمـا أعلـن من قبل احتقاره له، *كان يُخادع*. لم يواجه. الشـخص الوحيد الذى أعجب به الصبى، كان روميل فى أفريقيا، وقـد أدرك ذلك فيما بعد عندما كان يلعب على ضفة نهر الالبه. أعجـب بالدفـاع عـن المواقع الحربية حتى آخر رجل والهجوم الضارى على المواقع الإنجليزية (مازال الأطفال حتى الآن عندما يلعـبون لعـبة الحرب، ينتصرون فى تلك الحرب بأثر رجعى)، *الصمود* وتحمّل المسئولية، يتّضح اليوم أنهما كانا ضعفاً وجبناً.

ربمـا يكمـن هنا السبب فى أن الصبى الذى لم يعد طفلاً لا يقـبل كل ذلك وكان يكتب عنه بدون انتقاد فى البداية، حيث كان يصـور أشخاصـاً خياليين فى مواقف صراع. كراهية، غضب، احـتقار. ولـيس فقـط بسبب كل النواهى الصغيرة من قبل الأب

وأحكامه المسبقة عن كل ما يتعلق بالأفلام والموسيقى والموضة، لم يكن الأمر والنهى تعبيراً عن نقطة ضعفه وحسب، وإنما كانت محاولـــة فاترة للتنصل من الاعتراف بالمسئولية عن موقفه آنذاك، موقف الذى لا يعرف سوى الأمر والطاعة. من كان يطاع آنذاك؟ مـــن كـــان يعطى الأوامر؟ وكيف كانت تنقل إلى الآخرين؟ وماذا كانـــت تلـــك الأوامر؟ كان عليه أن يتحمل مسئولية هذا، ولكنه لم يفعـــل. كان يتحدث كثيراً. ويفعل الشىء الذى كان يصفه بالحقارة إذا قـــام به آخرون. لاحظ الصبى ذات مرة أن كل حاملى أوسمة الحرب يتحدثون كثيراً ولكنهم لا يتحملون المسئولية. وكانت كلمة: الخضـــوع للأوامـــر فـــى وقـــت الشدة واحدة من مقولات كثيرة يبررون بها أفعالهم.

الخضـــوع للأوامـــر فى وقت الشدة جعل المسئولين عن قتل الملايـــين يعيشـــون أحراراً بعد الحرب، جعل منهم قضاة وأطباء ورجال شرطة وأساتذة جامعات.

محاولـــة تذكـــر لحظات قرب بدون توصيفها بما لا تستحق. تلك المحاولة تنجح فقط عندما أضع نصب عينىّ مواقف قمنا فيها أنـــا وهو وحدنا بفعل شىء ما سوياً. حكاياته تقرب منى صوته، صـــوت هادئ، متوسط العمق. كان يحكى لى مساء القصص التى يخترعها. قصة ديكباك اليربوع الفضولى، الذى تسلّق لوحاً خشبياً فذهـــب به إلى جزيرة فى وسط النهر. تلك كانت قصص الأطفال فى الفترة التى أعقبت الحرب مباشرة. صوّر لنا نحن الاثنين، كان هو يبدو بالزىّ الرسمى أو بالقبعة والبذلة، مختلفة جداً عن صوره مـــع أخى، ففيها إما يحمله أمامه فوق الدارجة البخارية، أو يجلسه

بجانبه فى السيارة أو فوق ركبتيه بحجرة المعيشة. فى ذلك الوقت كان أبى فى نهاية العشرينيات. لا أستطيع تذكر أننى قد لعبت معه أبداً كرة قدم، أو أننى اشتركت معه أو مع أصدقائه فى فعل أىّ شىء. كان ذلك فى بداية الخمسينيات ولم يكن يملك وقتاً كافياً. عصر إعادة البناء. كان يملك تجارة مزدهرة ويلتقى بأصحابه ورفاقه القدامى. عالم الكبار.

كلمة طالما صاحبتنى طوال طفولتى – وصاحبت غالباً أخى فى طفولته أيضاً – اختش.

قمنا ذات مرة أنا وأبى بنزهة فى نهر ملىء بالنباتات فى سودرملون. خضنا فى الأدغال والنباتات الملتوية. كنت آنذاك فى الحادية عشر. صورة لنا نحن الاثنين عليها تاريخ، هو فى حلة وأنا فى سترة بيضاء، وبنطال قصير أبيض، كنا فى قارب. لابد أن أمى هى التى صوّرتنا أثناء عودتنا من النزهة النهرية فى ذلك النهر الصغير أو بالأحرى البحيرة الصغيرة فى حدائق لونبورج، ربما كانت رحلة فقدنا فيها الطريق فى إحدى البلاد البعيدة. ما أتذكره بوضوح هو الرغبة التى ظلت ملحة فى أن أعيد معه تلك الرحلة مرة أخرى.

عشرة أيام هى فترة الرحلة التى ظلت أيضاً واضحة فى الذاكرة. ليال هادئة تحققت فيها كل أمنياتى، بلا تذمر أو استياء من جانبي، رحلة مشتركة معه إلى كوبورج. أمى بقيت فى هامبورج، فلابد أن يبقى أحد فى المحل. قضينا ليلتنا فى كوبورج

فـــى فندق الحمامة الذهبية، أول بيت فى الميدان. كان من ضمن خطـــة الـــرحلة، فـــيما أعـــتقد، أن يعود مرة أخرى إلى المدينة الصـــغيرة حيث أرسل إلى عمته التى لم ترزق بأطفال وبقى معها بصفته أكبر أشقائه. جدتى كان لها خمسة أطفال، وجاء هانس فى ســـن العاشرة إلى كوبورج، والتحق بمدرستها وعاش لدى عمته، العمـــة أنـــا والعـــم فـــرانس شـــرودر، كان يمتلك ورشة لتحنيط الحـــيوانات. لابد أنّ هانس كان يساعده بعد المدرسة فى الورشة. ولابـــد أنه كان يعمل بجد شديد حتى أن العم حاول أن يبقيه معه، ثـــم حاول بعد ذلك أن يزوّجه من ابنته الوحيدة، ربما توضح تلك المـــرحلة مـــن حياته، تلك السبع سنوات التى قضاها فى المدينة الصغيرة سبب تعلقه بحلم الانتماء إلى الطبقة الأرستقراطية، فتلك المديـــنة الصـــغيرة أخذت اسم الدوق فون ساكسن كوبورج جوتا، وكـــان المجـــتمع فـــيها برجوازياً، طبقياً ويسيطر عليه رغم ذلك النبلاء من العصر البائد.

بالنسبة له كانت تلك الرحلة التى قمنا بها سوياً تحقيقاً لحلمه. فقد عاد مرة أخرى إلى كوبورج عندما انتعشت أحواله المالية، أى عندما أصبح شيئاً، وأتى مع ابنه، الذى وفد إلى الدنيا متأخراً. كان يقود سيارته الأدلر الخضراء الكبيرة خلال شوارع المدينة، وكلما أوقفهـــا كـــان يسمع عبارات الإعجاب بها. لماذا لم يجعل السائق يقود السيارة حتى هناك، رغم أنه كان يعمل لديه في ذلك الوقت؟ أظـــن أن قـــيادته السيارة بنفسه هناك كانت – غالباً – جزءاً من أحلامـــه، ومن ناحية أخرى فقد شعر بالتأكيد أن وجود سائق معه سيبدو شيئاً مبالغاً فيه وحباً فى التظاهر. السائق كان له مبرر فقط

فيما يختص بأعمال المحل، ولكنه ليس سائقاً خاصاً. وكان غريباً أن يوجد شخص واحد يصفه بمحب المظاهر، رغم أنه كان يحيا دائماً فى ظروف تتجاوز بكثير دخله.

التقدير الخاطئ بل والمبالغ فيه لمكانته الاجتماعية كان يرجع فقط إلى حضوره وسط الناس، طريقة تعامله معهم، تصرفاته اللائقة دائماً، أدبه.

أما ما كان يجب أن يكون فخوراً به عن حق، ما كان يمكن أن يحقق له شهرة فعلية، أى طريقة تحنيطه للحيوانات وتنافس المتاحف على توظيفه ومدح الخبراء له، فهذا ما لم يكن يتحدّث عنه أبداً.

قابل فى كوبورج ابنة خالته وأبناء أخواته وأصدقائه ومعارفه. كانوا يدعونه للعشاء، وقد أصبحوا الآن وكلاء تجاريين أو موظفين فى البنوك، أو حتى تزوجوا زيجات "لُقْطَة". وفى تلك المدينة الصغيرة التى كانت مركزاً للحكم كان الضباط ينتظمون – كذلك الفرق– فى تنظيمات شتى. وكانت طائفة موردّى القصر ماتزال موجودة، بقية من بقايا حياة بلاط دوق ساكسن كوبورج كوتا والتى انتهت باندلاع ثورة ١٩١٨. إلا أن روح التدرّج الطبقى ظلّت تحيا في تلك المدينة الصغيرة وقتاً أطول. فمثلاً كان أحد الأعمام عضواً فى كورال البحرية وكان دائماً يُسأل إذا كان ذلك الأمر مناسباً لمركزه الاجتماعى وهو ضابط كبير فى الجيش؟

تابعنا الرحلة بعد ذلك خلال مقاطعة فرانكن وذهبنا إلى أماكن كانت تعنى بالتأكيد شيئاً لأبى فى شبابه، صعدنا القلاع وبحثنا فى

الغابـــات عن أطلال نمت عليها الأعشاب والنباتات، أماكن عرفها فـــى صباه حيث كان ينطلق فى نزهات خلوية مع قيثارته. قضينا اللـــيالى فى عدد من أعرق الفنادق. وأكلنا فى مطاعم عرفنا أنها *الأفضـــل*. كـــان يقص علىَ قصصاً تاريخية. فقد كان عارفاً جيداً بـــتاريخ مـــنطقة فرانكن. كان مسترخياً ودوداً، سخياً (وقد كان كذلـــك طـــوال الوقت). فى تلك الرحلة لاحظت كيف كان يحصد إعجـــاب النساء، ففى ذلك الوقت كان مازال رشيق القوام ومستقيم الظهر- ذقنه عند ياقة قميصه – وكانت الشمس قد لوّحت بشرته، بشرته كانت من النوع الذى يكتسب السمرة بسهولة، وهو ما كان يـــبرز تناقضـــاً مؤثراً مع شعره الأشقر وعينيه الزرقاوين. كان يرتدى آنذاك حلله التى فُصّلت خصّيصاً لأجله مع قمصان بأساور يترك غالباً أزرارها مفتوحة.

علـــى حـــدّ علمى لم تكن له طوال فترة زواجه عشيقة، ولا كانـــت له علاقة بامرأة أخرى. ولكنه كان يستمتع بكونه مرغوباً. وأمـــى لم تكن تعترض على ذلك. وكانت هناك أيضاً وجهة نظر اقتصـــادية فـــى الموضـــوع، فالكثير من المترددات على المحل، خاصة الموسرات منهن، كن يأتين لشراء المعاطف فقط من أجله.

فـــترة قصـــيرة – ثلاث أو على أقصى تقدير أربع سنوات – كان فيها الشخص الذى كان يرغب أن يكونه.

ســـتالينجراد، كراكوف وكييف، كانت تلك أسماء المدن التى يـــدور عنها الحديث فى أغلب الأحيان. المعركة فى ستالينجراد، اســـتعادة الســـيطرة على كراكوف، تلك المعركة التى اشترك فيها

أخـــى. وكييف حيث كان أخى وبعده بفترة قصيرة أبى أيضاً، ولم يلتقيا رغم ذلك. فأخى كان قد تم استدعاؤه إلى الجبهة عندما ذهب أبـــى إلى هناك. ويحكى عن كييف أن الروس قاموا قبل انسحابهم مـــنها فى عام ١٩٤١ بوضع ألغام تحت المنازل بل وتحت أحياء بأكملها، بعد دخول الألمان للمدينة فجّروا تلك البيوت عن بُعْد.

لم يتحدث أحد عن بابيج جار، جرف بالقرب من كييف.

بالـــتعاون مع فرق الجيش واثنين من كوماندو قوات الشرطة ـــى الجـــنوب، قامـــت فرقة الكوماندوز الخاصة ٤ أ فى التاسع والعشرين والثلاثين من شهر سبتمبر فى عام ١٩٣٣ بإعدام ٧٧١ يهوديـــاً. وتـــم تحريز النقود والممتلكات القيّمة والملابس وتحويل جـــزء مـــنها إلـــى ممتلكات النازى العامة من أجل تسليح الشعب الألمانى، وذهب جزء آخر إلى بلديات لتوزيعها على فقراء المدن المختلفة.

ذلك كان الإعلان رقم ١٠٦ الصادر عن الاتحاد السوفيتى فى السابع من شهر أكتوبر عام ١٩٤١.

قـــبل إطـــلاق الرصاص عليهم، كان على الناس أن يخلعوا ملابســـهم. الصـــور – ويالللغرابة كانت ملوّنة – التى التقطها أحد القائمين على التوثيق فى حملة الدعاية الخاصة بقوات النازى كلها لقطـــات قريبة: طرف صناعى، فردة حذاء أسود اللون، قميص، أبيض، معطف بنى. آثار أقدام فى الرمال. أو صور أخرى: فردة حـــذاء لطفل، معطف فراء، حقيبة يد بنية، قلنسوة أطفال صوفية، خطـــاب، كـــتاب، فـــى الأغلب كراس لكتابة المذكرات. وصورة

أخـرى جماعـية لآلاف من قطع الملابس المخلوعة، جزء منها طـوى بعناية وجزء آخر قُذف بلا اعتناء. فى إحدى الصور ترى جنديين ألمانيين وهما يفحصان كومة الملابس الملقاة فوق الأرض، لا يبحثان عن أشياء قيّمة، وإنما عن أطفال صغار حاولت أمهاتهم أن يخبئنهم بين الملابس قبل أن إطلاق الرصاص عليهم.

ترى فى الصور أن الشمس تشرق بوضوح.

كان بين الجنود أيضاً رجال، قليل من الرجال، رفضوا أن يطلقوا النار على المدنيين. ومع ذلك لم يحدث أبداً أن أعدموا رمياً بالرصاص، ولم ينزلوا رتبة، كما لم يحدث أن مثلوا أمام المحكمة العسكرية. البعض القليل منهم إذن قال لا، مثلما يؤكد ويثبت براونينج فى كتابه، ولكن هؤلاء الرجال لم يكونوا *رجالاً* عاديين.*

هو، أخى، كان يصيح. كان صوته آتياً من آخر الممر، أو شىء شبيه بالردهة. كنت أجرى فى الممر الذى ينفتح فجأة على فضاء مفتوح. حديقة يقف فيها الكثير من الناس، كأنهم فى نيجاتيف فيلم، ظلالهم كانت بيضاء، ووجوههم سوداء، ولا يمكن أن تتعرف على ملامحهم. أخي، يقف هناك، وجهه أسود، وزيّه، هل كان زياً رسمياً؟ فاتح اللون. يرجونى أن أغنّى له. وأخذت أغنى. وأفاجأ بأننى نجحت فى الغناء بهذا الشكل الجيد. وفجأة

يلقـــى لى بثمرة كمثرى، لا أستطيع أن أمسك بها. وفزعى، عندما وقعـــت الثمرة على الأرض. ثم بعد ذلك أسمع صوته يقول: نجدة الزهور الخيمية. Doldenhilfe

ديـــر لاورا فى كييف يقع على منحدر نهر الدنجبر. من هنا بـــدأت عملية التبشير المسيحى فى روسيا، هكذا يقول لى المرشد كنت أسير وراءه بعد ترجّلنا من السيارة وأنا أحمل شمعة وتتبعته إلـــى الممرات الضيقة التى تقودنا إلى جوف الأرض. فى الحوائط دفـــن الآباء المؤسسون لهذا الدير، وتستطيع فى ضوء الشمعة أن تتعرف على بقاياهم خلف الفاترينات الزجاجية. فى مغارة موسّعة ومضاءة بالشموع يجلس أربعة رهبان شبان لم ينذروا أنفسهم بعد. فعلـــيهم فـــى الـــبداية قضاء بعض الوقت فى جوف الأرض فى الصـــلاة والصـــوم بجانب إخوتهم المتوفين. تقودنا الممرات التى تشـــبه الأمعاء الدقيقة خلال جوف الأرض، وبالفعل تقوم الأرض هنا بهضم المدفونين بداخلها، قبل أن يقوموا مرة أخرى فى نهاية العـــالم ليـــنعموا بالحياة الخالدة. الرهبان الشبان يتكلمون بصوت خفيض مع الحجاج ووجوههم شاحبة بل تكاد تكون بيضاء.

عـــندما رقدت أختى للمرة الثانية فى المستشفى، لمدة أسابيع كانـــت لديها الرغبة الملحة نفسها أن تعود مرة أخرى إلى البيت، وفكرت كثيراً كيف تطوّرت الأمور إلى هذا الحد فى حياتها ولماذا ســـارت حـــياتها على هذه الشاكلة؟ لم تقل أن الذنب كله كان ذنب أبـــى، كانت تتحدث كثيراً عنه، أكثر مما كانت تتحدث عن أمى، حـــتى عندما أصابتها جلطة جعلتها عاجزة إلى حد ما عن الكلام.

كانـت تـتحدث فـى الأغلب عن مشاهد تخطر على بالها، وتهز رأسـها دائماً عندما تتذكّرها. كثيراً ما كانت تستخدم أثناء حكيها كلمـة لم أسمعها تقولها منها قبل ذلك: أستطيع أن أتذكّر، أستطيع أن أتذكر، كـأنها تستعيد ما نسيته.

كانـت تستعيد حياة أبى، الحياة التى فشلت. وحياتها التى كان يمكـن أن نقـول عنها فاشلة أيضاً لولا أنها قابلت فى سن الثانية والسـبعين وبعد عملية جراحية أُجريت لها الرجل الذى تقول عنه أنه سعادة حياتها، و كانت تتحدث عنه دائماً بعذوبة شديدة.

هذا الرجل ظلّ أيضاً بعد تقاعده طبيب العائلة. كان يسكن فى الشارع نفسه، فى بيت قريب من بيتنا، ولكن صورة الشارع هناك تخـتلف عـنها فى المكان الذى نحيا فيه، فهناك يسكن الناس فى فيللات بدلا من بيوت الإيجار ذات الطوابق الأربعة.

بيـن الحيـن والآخـر كانت أختى تقابل الطبيب صدفة فى الشـارع. كانـا يتـبادلان التحية وبعض الكلمات. ثم فى أحد أيام الربيع قابلته فى حديقة أيمسبوتلر. كان قد مرّ على عمليتها الأولى سـنتان. قابلـت الطبيب المتقاعد وتحادثا كما العادة مع بعضهما. لابـد أنـه كان فى ذلك الوقت فى السادسة والسبعين من عمره. كانـت قد سمعت من الجيران أن زوجته ماتت منذ بضعة أشهر. قالـت له أنها تأسف لموتها، فهى كانت تعرفها لأنها كانت تساعده أحـياناً فى العيادة. تحدثا قليلاً عن الطقس، أخبرته بأنها تأتى كل عصر إلى هذه الحديقة الصغيرة وتجلس فى الشمس إذا كان اليوم صحواً. لاحظت نحافته الشديدة ولون وجهه الرمادى كما لاحظت

أن "بنطلونه" لم يكن مكوياً، وأن قميصه كان مفتوحاً، وعدم حلاقة الذقن منذ بضعة أيام، وهنا مدت يدها فوق خده – رغم أننا جميعاً كنا نهابه بوصفه طبيب العائلة – وقالت له: لابد أن تحلق ذقنك.

وهنا تساءل: من أجل من؟ وكان صوته عندما قال تلك الجملة حاداً.

بعد يومين قابلته مرة أخرى فى الحديقة العامة ولاحظت أنه حليق. فى البداية تحدثنا عن أشياء كثيرة غير ذات معنى، ثم قال لها بدون مقدمات: مدى يدك. ورفع لها وجنته لتلمسها.

مررت يدها فوق وجنته ووجدت أنها ناعمة ملساء.

هكذا بدأ كل شىء. بدأ ما تصفه بأنه أسعد شىء حدث لها فى حياتها. كان أمامها سنتان ونصف تحياهما. اشترت لنفسها أشياء جديدة، أحذية بكعوب متوسطة الطول، وأحذية "لميع"، بنطلونات، بلوفرات بألوان مشرقة، بيج، أحمر. قفازات حمراء. لم يحدث أبداً أن ارتدت من قبل قفازات حمراء. سافرا سوياً إلى سيلت. فى الصور التى التقطت لهما هناك تبدو هى بشعر مبعثر فى الهواء، وابتسامة جريئة، وأجد أنها فى الصور لا تشبه أبداً الأخت التى عرفتها حتى الآن والتى كنت أراها بعينى أبى.

منذ ١١ شهراً وأنا أقلب دائماً صفحات دفتر المذكرات الصغير، والذى اهترأ جزء من غلافه الخلفى، وأتأمل رسوم أخى، رسوم لأسد يقفز من خلف شجرة إلى الأمام. الرسم، على ما أخمن، قام أبى فيما بعد بتصحيحه، إذ أن كل الرسوم التى

رسمها أخى فيما عدا ذلك تبدو ساذجة وغير دقيقة، أما ذلك الرسم الـذى أضـيفت فيه بعض التفاصيل الصغيرة بالقلم الرصاص.، فأقـرب للطبـيعة، أطـراف الأسـد، عيناه، الأنف، الفم والحلق المفـتوح. كل تلك التفاصيل تشى بفهم دقيق لما هو أساسى وهام. أنـا متأكد أن أبى قام فى تلك المواضع بالمساعدة ببعض الخطوط والظـلال، بعد أن أرسل إليه دفتر المذكرات. كان يريد غالباً أن يجعـل مـن ذلك الرسم الصغير للابن عملاً يتناسب مع توقعات ورغبات القارئ الغريب عنه، وهو فى هذه الحالة أنا.

دفـتر مذكـراته بـدأه أخى فى الرابع عشر من فبراير عام ١٩٤٣ بتدوينه ما يلى:

كـل سـاعة ننـتظر وصول القوات. منذ العاشرة والنصف صفارات إنذار تجعلنا على أهبة الاستعداد.

١٥ فبراير

زال الخطر، الانتظار.

١٦ فبراير

الروس يستولون على أراض أكثر، نحن بدون قوات تحمينا.

هكـذا تمضـى الأيام يوماً وراء الآخر. خلفية تلك المدوّنات المقتضبة مستعصية على الفهم، كما تجعل منه، من أخى، شخصاً غير مرئى، لا ذكر لمخاوفه، أفراحه، ما الذى يؤثر فيه؟ آلامه، لا توجـد مـرة تحـدث فيها عن أى شىء خاص بجسده، لا يشكو، يسجل فقط.

١٨ مـــارس: هجوم للروس لا يتوقف بالقنابل. سقطت قنبلة فـــى معســكرنا، ثلاثـــة مصـــابين. بندقيـــتى الام جى، لا تطلق الرصـــاص، أتـــناول مسدسى الام جى و أطلق نيراناً متصلة ٤٠ طلقة

فـــى هـــذه الصـــفحة أجد أثاراً لجسد أخى، فأصابعه تركت بصمات كأنها سحاب أسود فوق الورق، وكادت تخفى تماماً كلمة ٤٠ طلقة؟ أو هل كانت تلك كلمة أخرى؟ مثلا ٤٠٠؟

أمـــر مـــن الفيلدمارشال فون رايشناو صدر فى ١٠ أكتوبر ١٩٤١:

الجـــندى المكلف فى المناطق الشرقية ليس محارباً يتقن فنون القـــتال وحسب، بل إنه يحمل داخله الفكرة الشعوبية التى لا تقبل التـــنازل كما يتحتم عليه الثأر من كل الجرائم الوحشية التى عانى منها الشعب الألمانى وكل شعب آخر ينتمى للجنس الآرى. ولهذا السبب على الجندى أن يتفهم تماماً ضرورة الثمن القاسى – العادل فى الوقت نفسه – الذى يجب أن يدفعه البشر الأدنى من اليهود.

كنـــت *أتمـــنى لـــو أنهما* – أخى وأبى – قد تصرّفا مثل ذلك الضابط الألمانى الذى كان يظهر مرتدياً الزى الرسمى وهو يسير إلى جوار صديقه فى شوارع المدينة. فى هذا كان على اليهود أن يلصقوا فوق أذرعهم نجمة تدل على عرقهم. طرد الضابط بشكل مخل بالشرف من الجيش. وقام فولفرام فته بتدوين هذه الحادثة فى كتابه قوات الدفاع. ضابط شجاع. ولكنها شجاعة مختلفة تماماً عن

تلـك التى ينتظرها الناس فى ألمانيا، ينتظرونها ليبرهنوا بها على انـتمائهم للمجموع، شجاعة كانت تفترض الطاعة والولاء، وهي صفة أخلاقية من صفات البروسيين تجعل من الشجاعة عنفاً، عنفاً ضـد الآخريـن، وأيضا ضد الذات، ضد *من تجرّأ وأظهر دناءة أفكـاره*، الشجاعة التى تؤدى إلى القتل، الشجاعة التى تؤدى إلى قـتل الذات. ما لم يكن بحسب كانت الشجاعة أن يقول أحدهم لا، أن يعارض، أن يمتنع عن تنفيذ الأوامر. لو أن أحدهم فقط تنازل عـن الرغبة فى صنع مستقبل مهنى رائع، الاحتقار الغريب تجاه الضباط والجنود الذين كانوا يثورون على الأوامر واحتقار أولئك الذين هربوا من تأدية الخدمة العسكرية.

هـذا يـتوقف علـى أن يجرؤ أحدهم ويكون نفسه تماماً، أن يجرؤ إنسان واحد أن يكون واحداً متفرّداً أمام الله، وحده تحت هذا الحمل الفظيع وتحت تلك المسئولية الفظيعة.

سورين كيركجارد

مـنذ أن بـدأت العمـل فى هذا الكتاب، منذ أن بدأت قراءة الخطابـات ودفـتر المذكـرات وأيضاً الملفات والتقارير والكتب مـرات ومـرات، كما قرأت بريمو ليفى وجورج زمبرون وجان أمـرى وإيرمه كريتش وكتاب براونتج رجال عاديون تماماً أكثر مـن مرة، منذ أن بدأت القراءة يوماً بعد الآخر عن تلك البشاعة، الأشـياء الـتى لا يمكن للعقل أن يدركها، حتى شعرت بآلام فى عيـنى،كان الألم فى عينى اليمنى، قطع فى القرنية، وبعد بضعة أسـابيع، شـعرت بألم فى اليسرى، وتكرر الألم مرات ومرات،

وأصـــبت به الآن للمرة الخامسة، ألم حارق غير محتمل. لم أكن فـــى العادة حسّاساً تجاه الألم، ولكنى لا أستطيع النوم بسببه، كما أنـــه يجعـــل القـــراءة والكـــتابة مستحيلة، ألم لا يجعل فقط العين المصابة تدمع، بل يجعل العينين تدمعان. أنا أبكى، أنا الذى أنتمى إلى جيل حُرِّمَ عليه البكاء – الصبى لا يبكى – كأننى ببكائى الآن أعـــوّض كل الدموع التى كبتها من قبل، أبكى أيضاً على الجهل، على عدم الرغبة فى المعرفة، جهل أبى وأمى وأخى، أبكى بسبب مـــا كـــان علـــيهم أن يعرفوه، بالمعنى الحرفى للمعرفة، يعرف (فيســـان) تعـــنى فى الألمانية القديمة يلمح، يرى. لم يعرفوا شيئاً، لأنهم لم يرغبوا فى أن يروا ما يدور من حولهم، لأنهم تجاهلوا ما كان يجرى، ومن هنا مزاعمهم: لم نعرف ما كان يحدث، لم نكن نرغب أن نرى، لقد تجاهلنا الأمر.

أحلم – أننى أجرى خلال المخابئ الأرضية. الخرسانة تقطر رطوبـــة تشـــكل فـــوق الأرض ظـــلالاً غريـــبة. جاء إلى جنود المراســـلة، أخذوا يدورون حول الأشكال الحجرية. فتحت الأبواب "بأجـــنات" حديديـــة. وفى إحدى غرفه ذات فتحة تهوية خارجية، جلـــس أبـــى وكان يشرح لى، كيف يقفز المرء من مسافة عشرة أمـــتار إلى حمّام السباحة بدون أن يصاب بكرباج مياه. قفزت فى الماء وهنا استيقظت.

عـــاد الصـــبى مـــتأخّراً ونسى كل ما كان عليه أن يحضره. ماأزال حتى الآن – بالرغم من أننى أحاول منذ أسابيع تذكر ذلك

المشـــهد- لا أعـــرف ما الذى كان عليه أن يحضره. أرسله الأب إلـــى البيت مرة أخرى بعد أن أخبره أنه سينال عقابه من الضرب فى المساء. انقضت ثلاث أو أربع ساعات لم يفعل خلالها الصبىُ شيئاً سوى أن يفكر فى العقاب الآتى. وفى المساء أتى الأب، فتح الـــباب وخلع معطفه، ثم حزامه الجلدى وأمر الصبى أن ينحنى ثم بدأ فى الضرب.

أتذكـــر أمـــى وهـــى تحـــاول أن تقنع أبى بأن يتغاضى عن الضرب. أتذكرها وهى ترجوه، بل تتوسل إليه ألا يضرب.

وهـــنا لم يعاقب الأب الصبى فقط وإنما عاقبها هى أيضا بأن تجـــاهل رجاءهـــا بالصفح. كانت تلك المرة الوحيدة التى ضربنى أبى فيها. وكانت تلك المرة عبرة للمستقبل.

فى ذاكرتى ظل ذلك العصر، مثل فجر يبزغ من السماء يعلنِ عن قدوم العقاب، عن التربية. الغضب.. الشىء الوحيد الذى ظلَ باقياً لدىّ، وبمرور الوقت تصاعد داخلى الإحساس بالثورة.

العـــنف كان شيئاً *عادياً*. فى كل مكان كان الضرب، الضرب بســـبب العدوانـــية أو عـــن اقتـــناع، أو بسبب طرق تربوية، فى المدرسة، فى البيت، أو فى الشارع.

كـــان الصـــبى يركـــب الســـكوتر فـــى الطريق المخصصة للدراجـــات، مـــر به سائق دراجة وصفعه على وجهه، هكذا بكل بساطة، سقط الصبى من فوق السكوتر.

أحسن، قال أحد المارة.

العـنف فـى المدرسـة. كـان المدرسون يضربون بالعصا والمسـطرة فوق اليد الممدودة. ذات مرة قامت إحدى المدرسات بـنزع خصـلة من رأس الصبى، فذهب الأب - بعد أن اكتشف المنطقة المنزوعة الشعر - إلى المدرسة واعترض. شعر الصبى بالحـرج كمـا لو أنه "فتن" على زملائه فى المدرسة، ولهذا فقط سـكت الصبى منذ ذلك الحين عن كل العقاب الجسدى الذى كان يـتعرض له في المدرسة. *ضرورة تعلم كيف يكتب* كانت بالنسبة للصـبى أيضـاً عنفاً. كلمات *الترتيب الأبجدى، الحفظ فى الصغر كالـنقش على الحجر*. كان الأمر كما لو أن الطفل يتمرد ضد هذا الفـرض، أن يحوّل نظام الأصوات إلى علامات، فبدأ يحافظ على صوته، يقرأ بصوت عال، ليُسمعَ صوته، له وقع "حلو" فى الأذن، والـيوم عند القراءة أو عند الكتابة أسمع صوتى فى رأسى، كأنه صـوت مخى يقول برغبة محمومة: *الكلمات، الكلمات، الكلمات*. وهكـذا ارتبطت الكتابة لدىّ بالجسد، كان الأمر - ومايزال حتى الآن - دفاعاً ضرورياً.

العـنف فـى البيـت وفى الشارع كان يستمد مشروعيته من العـنف الذى مارسته الدولة ومن استعداد النظام السياسى فى ذلك الوقت لتقبّله. *استعداده للحرب*.

التاريخ يقول: إن العنف يُعتبر شرعياً للوصول إلى الأهداف السياسـية، كلمـة ذات تداعـيات إيجابـية. ولهذا السبب سُمّيت الشـوارع والنصـب التذكارية بأسماء المعارك. والبرهان القاطع علـى السياسـة الـناجحة كانـت الهجمات الحربية التى قام بها

فـريدريش الأكبر وتلك التى بادر بها بسمارك، الحروب الألمانية الدنماركـية والحـروب البروسـية النمساوية والحروب الألمانية الفرنسـية. العـنف، العنف الثورى، كان العنف الثورى أيضاً فى سياسـة اليساريين. الماركسية أداة سياسية شرعية من أجل التغيير الاجـتماعى. لنيـن كـان مثلا مُعجباً بنظام الجنرالات الألمان. الطاعـة للحـزب. الفـرد ليس شيئاً، الحزب.. كل شىء. جندى الحـزب. سكرتير الحزب. اللجنة المركزية. خدمة *القضية* التى لم تكـن علـى أية حال مثل الأيديولوجية النازية، أى أنها لم تكرس عـدم المسـاواة بين القائد والتابع، بل كان هدفها العكس من ذلك تمامـاً، القضـاء على ما يصنع عدم المساواة، الهدف كان إنشاء مجـتمع أخوى بلا طبقات، ومع ذلك فقد انطوى ذلك الهدف على عنف وعلى قهر مؤقت.

إعجـابى كان بالرفاق الشيوعيين الذين أُسروا فى المعتقلات الـنازية، وكوّنـوا هـناك جماعات ثورية، وظلّوا يكافحون ضد الـنازية دون أن ينكسـروا، وبعـد الحرب، أثناء حكم أدناور فى ألمانـيا الاتحادية مُنعت الأحزاب الشيوعية فبدأوا نشاطهم السرى، وظلـوا يكافحون بعناد وتصميم متمسكين بقضيتهم وبأفكارهم عن المساواة والعدالة، كان إعجابى بهم قد غذته أيضا تلك *الأخلاقيات القديمـة* الـتى تعلّمـتها من أبى: المثابرة، التصميم على تحقيق الهـدف، الشـجاعة، تلك الأخلاقيات اللازمة لأى مناضل. وهكذا انضـممت إليهم. وعندما بدأت هوة الخلافات تزداد بينى وبينهم، وعـندما تركت الحزب، كان أكثر ما يؤلمنى فكرة أننى قد تخلّيت

عــن الرفاق. بالرغم من أن قراري الذى اتخذته عن اقتناع وعن روية، كان ثابتاً ومع ذلك فقد بقى الشعور المضنى؛ أننى خنت.

الشــجاعة أن تقول لا وأنت لا تعتمد على أحد سواك. لا أحد فــى خدمــتك. الخطيــئة فى الديانات وفى كل نظامٍ شمولي هى خــروج عــن الأمــر والطاعــة. أن تقول لا حتى فى مواجهة المجموع.

: أنهــى هــنا يومياتي، إذ أننى أرى أنه من غير المجدى أن أكتب عن أشياء، فظائع تحدث أحياناً بكل تلك الدقة.

كنت أعود إلى تلك الجملة مرات ومرات أثناء الكتابة- كأنها بالنسبة لى شعاع ضوء يسقط فى وسط الظلام.

من أين أتت تلك القناعة؟ أخى يسجل موت اثنين من زملائه وفقــده لمــنزله. والواقعتان مرّ عليهما وقتٌ طويلٌ. هل يمكن أن يكــون قد حدث شىء ما أثناء تعبئة القوات على خط القتال، شىء فظــيع، تعذرت معه الكتابة عنه؟ الملاحظات المختزلة لا يمكنها التعبــير عــن عــذاب الآخريــن أو العذاب الشخصى. تشى فقط بالغــياب المطلــق لكــل شعور بالرثاء ــ حتى الرثاء للنفس ــ والتكرار أحيانا يجعل الشىء الفارغ من المعنى شيئاً عادياً.

القــناعة أنــه لا يمكن كتابة اليوميات عن أشياء فظيعة، هل تشــمل أيضــا الاعــتراف بالفظــائع الــتى حدثت عند الأعداء والضــحايا؟ الجــنود والمدنيين الروس؟ أو اليهود مثلاً؟ فى تلك

اليوميات لا تجد أية مقولة معادية للسامية ولا أية أفكار مسبقة تشبه الموجود فى رسائل الجنود الآخرين: بشر أدنى، الوحل، الحشرات القذرة، تبلد الإحساس والروس. ومن ناحية أخرى لا تجد جملة واحدة تنم عن أى تعاطف، إشارة واحدة فى نقد للظروف يمكن أن تقرأها بين سطور اليوميات، لا شىء يمكن أن ينم عن تغير مفاجىء فى عقيدته. الملاحظات لا تشى باقترافه الفظائع عن اقتناع كما أنها لا تشير إلى أىّ تمرد مكبوت. تشى الملاحظات بعمى جزئى وهذا بالضبط الشىء المفزع. *الشىء العادى* فقط ما كان يسجله أخى فى اليوميات. ولهذا السبب تبدو تلك الجملة مثيرة للتعجب، مثلها مثل الفجوة بين الملاحظة التى سجلت من قبل عن *معاودة السير*، وتلك القناعة *أنه لا يستطيع الكتابة عن الفظائع*. ثم الرغبة، رغبتى، أن تعبّر تلك الفجوة مثلاً عن الرفض، عن عدم الامتثال للأوامر الذى يتطلّب شجاعة أكثر من الموت لمنع العربات المصفّحة من التقدم. إنها الشجاعة التى تؤدى إلى العزلة، أن يعرف المرء أنه على شفا ألم الكبرياء والعزلة.

الأمل والموت كانا يحددان حياة الأبطال، يحددان الاستعداد لاحتمال الألم، الاستعداد للموت. قبول الألم مرادف لقبول الحياة، الحياة التى لا تقف موقفاً سلبياً، الحياة التى يمكن تعريفها بأنها نقيض كل إنسان خامل، محدود الأفق، محدود الموهبة ولا يحب تحمّل المشاق.

الجنرال اليابانى نوجى، تقبّل بكل رضى نبأ موت ابنه. إلا أن حياة الأبطال كانت قد أصبحت شيئا مشكوكا فى مصداقيته،

أصبحت لا تناسب العصر تماماً مثل كل لوازم الأبطال التى تُعرض فى المتاحف: السيوف، أحذية الفروسية، المهاميز والخنجر. الخنجر الذى كان على أبى أن يرميه ليشترى بدلاً منه خنجراً قديماً، تلك أيضا صورة محفورة فى الذاكرة، لأنه أثناء صعوده للقطار فتح أحد قاطنى المكان - من أولئك العمال التافهين - الباب بقوة - غالبا تأدباً منه - إلا أنه لم ير الخنجر الممدود الذى انثنى.

الغريب فى نص ارنست يونجرز" فى عواصف الصلب" والمدهش أيضاً.. تلك القناعة أن شجاعة مواجهة الموت والالتزام والتضحية بالنفس كانت قيماً مطلقة، لم تكن فقط مقاييس اجتماعية وإنما كانت قيما تتجاوز العدمية. الشجاعة والطاعة والالتزام كانت فى الوقت نفسه قيماً ساعدت مصانع الموت على الاستمرار فى الإنتاج، حتى إذا لم يدرك المرء ذلك، ولكن كان على الناس أن يعرفوا ذلك، هذا ما لم يستطع أبى أن يراه أو يعرفه أبداً. كان هنالك تساؤل لم يطرحه أبداً جيل الآباء على نفسه - كأن وعيهم لم يكن يملك الأدوات اللازمة لطرحه - فطرح عليهم من خارج أنفسهم إلا أنهم لم يجدوا أبداً إجابة عليه، كل ما وجدوه كان حججاً.

التغيُّرات التى حدثت لأبى. زاد وزنه، ورم جسمه وترهل من شرب الكحول، تخلّى تماماً عن مشيته المستقيمة، أن يرتفع ذقنه فوق ياقة قميصه، بدأ يمشى منكفئاً على ذاته، ولا يرتدى ربطة العنق، وترك قميصه مفتوحاً، حتى يستطيع أن يتنفس.

كان بالفعل يعانى من مشاكل فى القلب، وأزمات فى التنفس، كان يدخن ويشرب ثم يأوى فى الثانية أو الثالثة صباحاً إلى فراشه، وفى اليوم التالى يصحو فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة بصداع شديد سببه الشرب، وجهه متورم ورمادى. بقيت زبونات قليلات يأتين للمحل من أجله، وفقط من أجل إصلاحات بسيطة فى معاطفهن .

قلّبت فى دفاترى، وأُصبت بأول قطع فى القرنية فى عينى اليمنى أثناء قراءتى لكتاب براوننج "رجال عاديون جداً".

ما الذى سيقوله أخى عن هذا الكتاب، إذا قدر له أن يعيش؟ كيف كان سينظر إلى الفترة التى قضاها فى الجيش؟ هل كان سينضم إلى أحد اتحادات النازية؟ ما الذى كان سيقوله لو عاش وقرأ اليوم مثل هذه الجملة: *على بعد خمسة وسبعين متراً، يدخن ايفان سيجارة،فريسة لبندقيتى.*

وماذا كان سيقول أبى؟ هل كان سيقرأ الكتاب أبداً؟ أو حتى يمسك به؟

حاولت أن أتصل به تليفونياً، كان علىّ أن أبلغه شيئاً، وتعجبت، ففى الحلم أيضاً كان علىّ إبلاغه بشىء لم أكن أعرفه. كما لم أعرف أيضاً من كلفنى بإبلاغه. ولكنه كان شيئاً على

درجـــة عالـــية من الأهمية. جريت من كابينة تليفون إلى أخرى، ولكن فوق كل شاشات التليفونات كنت أقرأ: خارج الخدمة. اطلبْ فقـــط الـــنجدة. ضغطت بعد تردد على رقم النجدة. سمعت صوتاً زاعقـــا وأدركت أن هذا الصوت صوت تفكيره. يا للكلمة العجيبة: صوت التفكير.

فـــى ذلك الصباح نفسه، وبعد الإفطار أدرت رقم هاتف أبى الذى ظل محتفظاً به لمدة نصف قرن، ثم تركه لأمى ومنها لأختى فيما بعد : رقم ٤٠٥٠١٠. وأدرك الآن فقط أن الرقم غريب، فهو إذا جمعت كل تلك الأرقام يعطيك الرقم ١٠٠، ومقطعه العرضى ١٠. أسمع على الهاتف: هذا الرقم غير موجود بالخدمة.

حـــتى هـــذا لـــم أنتبه إليه إلا أثناء كتابتى، لم يذكر شيئاً عن طفولـــته أبداً. يقال أنها كانت طفولة عصيبة. قضاها عند عمه فى كوبـــورج، وكـــان يعمل فى تحنيط الحيوانات، هذا ما كانت تقوله أيضـــا عمـــتى. فى سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة ذهب إلى عمـــى. يقـــال أنـــه كان تلميذاً مجتهداً ومتفوقاً فى اللغة الألمانية الفصـــحى التى كان يتحدثها بلكنة أهل الشمال. لابد أنه كان يشعر بـــالوحدة. ففى النهار كان يذهب إلى المدرسة وبعد الظهر يساعد عمـــه فـــى الورشـــة. عـــثر ذات مرة على غراب وقع من عشه فاستأنســـه. وكان يمشى فى الشوارع وهو يحمله فوق كتفه. تلك هى التفصيلة الوحيدة التى أعرفها عن طفولته.

تلـــك الصورة: غراب كان يستطيع أن يتلفظ ببعض أصوات تشبه الكلمات.. واقفاً على كتف الصبى الذى أصبح فيما بعد أبى.

أيقظتـــنى أمّـــى ليلاً، مايزال هذا الموقف ماثلاً بوضوح أمام عيـــنى، أمى وهى تقترب من فراشى وتقول: أسرع، ساءت حالة بابـــا. كـــان هذا اليوم حاراً بدرجة غير عادية، يوم ١ سبتمبر من عـــام ١٩٥٨. وفـــى الثالثة فجراً كان الجو مايزال رطباً وحاراً. هبطـــت إلـــى الشارع ووجدته ممدداً على أرض المحل كأن أحداً أســـقطه بين المقعد والمنضدة التى كان يدخن عليها، تلك المنضدة الـــتى أنقذهـــا ذات يـــوم من المنزل المحترق ونقلت بعد ذلك إلى المحـــل ووضـــعت بجانب الحائط. يبدو أنه قد أمسك بالمنضدة أو بالأحرى استند إليها أثناء سقوطه. ذراعه اليمنى كانت ممدودة إلى جانـــبه، ووجهه كان رمادياً. كان مايزال مرتدياً البذلة ذات اللون الأخضـــر الداكـــن، وبالرغم من أن الجو كان حاراً لم يخلع حتى الجاكيـــت. لا يصـــح أن تخلـــع الجاكيت. الكلب كان يقفز حوله، يعـــوى ويلعق يديه ووجهه. فى الخارج، أمام باب المحل المفتوح بعـــض الـــناس يقفون صامتين تماماً. كان قد أغلق الباب الحديد وأبقى باب المحل مفتوحاً حتى يسرى تيار هواء إلى الداخل. هذا مـــا قصـــته علىّ أمى فيما بعد، كما قالت لى أن صياح الناس فى الخـــارج أيقظهـــا.كـــان المارة قد لاحظوا ساقيه الممددتين فوق الأرض مـــن خـــلال الـــباب نصـــف المغلق، فدفعوا الباب أكثر وشاهدوه واقعاً فوق الأرض.

فـــيما بعـــد فـــى عربة الإسعاف جلست عند الطرف العلوى للنقّالة، والمسعف جلس إلى جانبها وسألنى عن بيانات والدى، وُلد فى الخامس من نوفمبر ١٨٩٩. كتب البيانات فى استمارة، وفجأة

سقطت ذراع الميت من فوق النقالة وضربت المسعف على ظهره. الفزع جعل المسعف يرتعش ويطلق صرخة خافتة. أعدت بحرص ذراع أبى الساقطة الثقيلة إلى وضعها فوق صدره. وتابعت سيارة الإسعاف طريقها من دون سرينة ومن دون الإضاءة الزرقاء. وأنا فكرت للحظة، للحظة فقط، كم كان بديعاً أنهم لا يسرعون، وفى الوقت نفسه كنت أعرف أن السرعة لم تكن ضرورية.

وصلنا إلى فناء مستشفى الميناء وترجلّنا. فتح المسعف الباب الخلفى لسيارة الإسعاف وتركها مفتوحة. وقفت أمامها وانتظرت. كان الجو مايزال رطباً. رأيت أبى فوق النقالة، تكسوه الظلال، وذراعاه فوق صدره. بعد برهة أتى أحد الأطباء مهرولاً، يدخن سيجارة، ويرتدى بالطو أبيض مفتوحاً. حيّانى بهزّة من رأسه وصعد إلى العربة، ثم قذف بسيجارته التى دخن نصفها خارج العربة وأخرج بطارية من جيب معطفه ووجه ضوءَها إلى عينى أبى.

نزل من سيارة الإسعاف ومدّ لى يده وقال: تعازىّ.

سألته عن سبب وفاة ابى فقال: إنه لابد من إجراء الفحوصات.

لمدة عامين بعد موت أبى، توليت إدارة المحل وعملت سوياً مع أمى وأختى على سداد ديونه، وكثيراً ما كنت أحلم هذا الحلم نفسه: جرس المحل يدق ويدخل أبى عملاقاً تكسوه الظلال. وشعرت بالفزع لإدراكى أنه تظاهر فقط بالموت.

اختفى الحلم بعد ذلك عندما ذهبت إلى المدرسة فى براونشفايج وبدأت هناك الاستعداد لخوض امتحان قبول الجامعة.

أحياناً، ولكن نادراً جداً، أشعر به قريباً منى.
صورة له، سطحها متكسر وألوانها باهتة، وهو واقف أمام كوخ أحد الفلاحين، لابد أن الصورة قد التقطت له عند بحر البلطيق، كان واقفاً فى الثلج مرتدياً قبعته وزيه العسكرى وحذاءه ذا الرقبة العالية. كان يضحك. والشبه بيننا فى تلك الصورة كان غريباً، الأب وابنه، ولكنه - الشبه - على الأقل كان واضحاً فى تلك الصورة الصغيرة ومن هذه المسافة البعيدة للكاميرا.

ما أزال منهمكاً فى العمل، نعم أعمل على تحقيق أمنياته.

عند مدخل أرض كاتدرائية صوفيا فى كييف، سمعت صوتاً يغنى، صوتاً خافتاً مليئاً بالشجن، لم أسمع أبداً غناءً بهذا الشكل فجذبنى إليه. وتابعت سيرى فرأيت فوق أحد الأسوار رجلاً يجلس تحت شجرة قيقب. كان واحدا من المغنين الجوالة. بدأ يسافر هنا وهناك بعد أن سقط النظام الشيوعى ويغنى أغنيات عن الأبطال الذين سقطوا فى المعارك وعن قصص الحب المعذبة. لابد أن الناس ظلّوا يحفظون تلك الذكريات طوال فترة سبعين عاماً، الفترة بين حدوث المعارك وبين خروج الأغنيات إلى النور. كان المغنى يعزف لنفسه على الكوبسا، وهى آلة موسيقية مدورة. وفجأة سكت

الغـــناء. وســـاد صـــمت مطبق ثم بدأ الغناء مرة أخرى فى بطء وخفوت.

وقفـــت واســـترقت السمع مأخوذاً، لفترة طويلة ظللت منصتاً وقد تفتحت عيناى وأذناى.

الغريـــب فى أمر هذه المذكرات أنها كان يجب ألا تكتب، فقد كـــان ممنوعاً كتابة المذكرات، خاصة فى قوات العاصفة النازية. فقد كان من السهولة بمكان، إذا وقعت فى أيدى الأعداء أن يعرفوا الكثـــير عن حالة ومزاج القوات الألمانية، وكان يمكن أن يتابعوا من خلالها تحركات القوات وهذا بالضبط ما أفعله أنا الآن، ولكن بعـــد ستين عاماً. لابد أنه كان يكتب مذكراته خفية، وهو ما يفسر اقتضـــابه وســـطحية مـــا يقصه، ولجوءه للاختصارات والأخطاء الإملائية.

مـــا يجعـــل مـــن أمر هذه المذكرات غريباً أيضاً هو أنها قد أرســـلت إلـــى أمى من قبل الوحدة الرسمية لقوات العاصفة، أمر بـــيروقراطى بحت: صندوق صغير من الكرتون، يضم خطابات ووســـاماً حربـــياً، وبضعة صور وأنبوبة معجون أسنان ومشطاً. وفى هذا المشط كان الشىء الوحيد الذى بقى منه. بضعة شعيرات شقراء. أنبوبة معجون الأسنان تحجّرت فى هذه الأثناء.

أنهـــى هـــنا يومـــياتى، إذ أننى أرى أنه من غير المجدى أن أكتب فظائعَ تحدث أحياناً بكل تلك الدقة.